حواديت عم فرج



نعمان عاشور

الناشر :
المكتبة الدولي للترجمة والنشر

نعمان عاشور

حواديت عم فرج

ملتزم الطبع والنشر

المكتب الدولي للترجمة والنشر
(وجيه راضي وشركاه)
١٠ شارع جلال ت: ٧٦٧٥٣ ٤/

مطبعة دار الهنا بشارع الصحافة بولاق مصر

تقـــــديم

كان من مصلحة السياسة الاستعمارية دائما ، الترويج للفكرة القائلة بأن مصر بلد زراعى صرف، وأن أى نهضة مصرية لايجب أن تقوم إلا على أساس الزراعة .. ولقد أفلح الاستعمار فى بث هذه الدعوى طويلا فى الأذهان ، حتى أصبحت لدى الكثيرين منا بمثابة العقيدة الثابتة التى لا يزعزعها تقدم .

وبمرور الزمن ، وبعد أن مضى على احتلال المستعمرين ثلاثة أرباع القرن تقريبا ، كشف التطور عن بهتان هذه الفرية الضخمة حتى أدركت مصر فى النهاية أنها لايجب أن تظل هذا الوطن الزراعى الذى كان يريده الاستعمار .. وخطت عجلة التطور فداست على هذه الأكذوبة ، وإذا مصر تتمطى فيها الصناعة وتتفتح عيونها على الآلة وتتحول يوما بعد يوم من قطر كان يراد أن يظل متأخراً. إلى قطر تنهار فيه جذور الاقطاع ، وتزدهر بين جنباته مورقات الصناعة على تتابع الأعوام .

وكما كانت تروج هذه الأكاذيب وترسخ فى عالم السياسة والاقتصاد ، كذلك لازالت تشاع الضلالات لتثبت فى دنيا الفكر والأدب . . فقد كان شائعا ولا زال أن أدبنا المعاصر، على ما يرى معظم نقاده ومؤرخيه مصريين ومستشرقين ، يتماوج بين ضفتين .. فهو يبدأ مسيره بالاستمداد

من الأدب العربي القديم وينتهي في استقراره على الشاطيء الآخر ، إلى الأخذ من الأدب الغربي ، ثم اقتفاء خطاه ومتابعة دروبه .

ولاشك أن في هذا الزعم ، كما في الزعم بأن مصر بلد تغلب عليه صفة الزراعة ، كثير من الحقيقة التي لا يمكن إنكارها . . ولكن الأدب المصري المعاصر وإن كان في ماضيه القريب بل وفي حاضره القائم أيضا ، أدب الصراع بين التحرر والجمود ، وأدب الخروج على البداوة الصحراوية والإنعتاق من مخانقها إلى آفاق حضارة القرن العشرين ، إلا أنه أدب لم يكن من الممكن أن يخرج على جمود ماضيه لكي يغرق بحاضره المتعثر في وهاد ثقافات الغرب . . والدراما ليست فنا فرنسياً إبتدعه راسين أو موليير لفرنسا ، أو فنا إنجليزياً ورثه شكسبير عن الأغريق لإنجلترا . . والقصة والرواية ليست من الفنون القومية التي إحتكرتها أمريكا أو استقلت بها روسيا . . لكن هذه الفنون وغيرها مما استحدثنا في أدبنا المعاصر ، فنون إنسانية لم توقف على أمة بذاتها ، وإنما هي تراث مشاع خلفه الإنسان للإنسان في كل أمة . . والإنسان المصري لا ينتجها اليوم مقلداً إنسان الغرب الذي سبقه إليها . .

وهذه الفنون فنون مصرية ، طالما كانت تستمد موضوعها من صميم حياتنا المصرية ، وطالما لم تخضع في إنتاجنا لها ، لأي من المذاهب السائدة في هذه القوميات الأخرى .. إنما الذي يدفع نقاد أدبنا المعاصر إلى مثل هذه الإتجاهات والمزاعم ، مرده أن هذا الأدب في سنيه الأخيرة ، كان قد أخذ يتخلى عن واقعه المصري الصميم ، وجنح إلى الإنحصار والسطحية حتى هزلت في نمائه الشخصية المصرية الحقيقية وجاء ذلك ، نتيجة لتباعد الأدباء عن حياة مجتمعنا القائم ومحاولتهم الفصل بين هذه الحياة ، وبين الفن .. ولعل

ذلك هو سر محنة أدبنا الحاضر... لأن الفصل بين الأدب المصرى والحياة المصرية الواقعية هو الذى يطوح بهم، وبإنتاجهم، فى شيخوختهم المواتية، إلى أبراج العاج وأوهام العصور الوسطى وبداوة الأولين . كما وأن هذا الفصل هو الذى يطوح بانتاج الكثيرين من أدباء الشباب إلى المنعرجات التى يتردى فيها الأدب الغربى الحديث، لأنه مثل ماينتجون وفى أغلب مدارسه المنتحاة أدب خارج على واقعه . .

ورغم هذا فإن الفصل بين الأدب المصرى المعاصر والحياة المصرية الواقعية، له أسبابه الإجتماعية الواضحة . كما وأن تلك التيارات التى ينساق فى هباتها بعض أدبائنا من الشباب، تيارات قشرية ضعيفة الأثر . ولقد أصبح من الثابت الذى لا يحتاج إلى جدال، أن أدبنا المعاصر لا يمكن أن تقوم له قائمة، إلا باستمداده من الواقع المصرى وتأثره به وتأثيره فيه .

وكما بات نهوضنا الإقتصادى اليوم رهن بالصناعة، فإن نهوضنا الأدبى بات رهن بإنهاض حياتنا الإجتماعية، مهما كان تأثرنا بمدارس الغرب ومهما كان إعتمادنا على تراث الأجداد . وهذه الغاية وحدها ولا سواها، هى التى تحدد كياننا الأدبى اليوم . فلن تقوم للأدب المعاصر قائمة، مالم يرتبط بحياتنا الواقعة، التى تتمثل فى حياة جموع الشعب . ومالم يكن له دور فعال فى تقدم هذه الحياة، وخدمة هذه الجموع، ودفعها قدما إلى الأمام فى مضمار التحرر والنهوض .

ولا محيص ونحن نمهد بهذا التقديم عن فن القصة القصيرة عندنا أن نهتف بهذه الحقيقة عالية، لتجوز مسامع بعض تلك الآذان التى أصمها دوى الواقع .

طور البكور

تاريخ القصة القصيرة عندنا تاريخ قريب ، يبدأ من مغرب القرن المنصرم ، مع النهضة الأدبية التي صحبت الحركة العرابية وأشعت في أعقابها بمجيء الأفغاني، ثم توهجت في مجتمع الجيل الذي تلاه من المثقفين،وهو الجيل الذي أخرج المويلحي ، رائد القصة المصرية القصيرة وصاحب « حديث عيسى بن هشام » . وإذا كانت هذه النهضة الأدبية الباكرة قد اشتملت على النواة الصالحة لخلق القصة القصيرة عند المويلحي ، فان هذا الفن من فنوننا الأدبية لم يزدهر الإزدهار الفعلي مع ذلك ، إلا بعد عام ١٩١٩ ، وعلى الأخص ، فى العقد الثالث من هذا القرن .

أقاصص ألف ليلة وليلة

ومع أن القصة القصيرة لون جديد لا زال فى طور البكور عندنا إذا ما قيس أدبنا القصصي بالآداب الأخرى ، إلا أن فن الأقصوصة مع ذلك، فن كان لأدبنا سابقة عهد به . بل إن لنا فيه ماض عريق أصيل. والحقيقة أن قصص ألف ليلة فى موضوعاتها المتباينة ، تعد من أسطع ألوان القصة القصيرة وأكثرها إمتاعا . وهى وإن لم تكن ذات تأثير مباشر على فن الأقصوصة عندنا اليوم ، إلا أنها كانت ولا زالت إلى حد بعيد جدا ، ذات أثر بالغ على الآداب الغربية كافة ، ولها فى هذه الآداب والفنون شهرتها وذيوعها التى لا يدانيها فى ماضينا الفنى قرين . . وهذه الأقاصيص تعتبر اللبنة الأولى لفن الأقصوصة فى تطوره ، من وهاد الاسطورة عند القدماء ، إلى ملامسة الواقع والخلوص إلى الحياة عند المحدثين . وهذا ما يعطيها قيمتها الموضوعية فى تراثنا القصصى . ونحن

من الذين يقولون بفكرة أن هذه الأقاصيص ، إن هي إلا المخلوف المتداول والتراث المدون للأدب الشعبي العربي، في خلال قرونه المتتابعة العريضة. إذ ترى أنها في مضمونها ، لا تقتصر على مجرد التعبير عن الحياة العربية عامة ، ولا عن حياة قصور الخلفاء وحياة الأمراء خاصة ، وإنما هي لسان ينطق بآلام ويرمز إلى آمال الأجيال الشعبية العربية ، في معارضتها لجور السلاطين وعسف الولاة وتحكم أتباعهم وظلم مواليهم . ولا مراء أن في تلك القصص ما يرجح هذا الفهم، إن احتاج إلى إثبات لا تجلوه إلا الدراسة الحرة وإعادة النظر في تاريخ الأدب العربي إعادة شاملة ، على أساس تفسيرات علمية واقعية خالية من زيف التعصب ،وغفلة النعرة ، وضيق الأفق، الذي يتصف به عادة، المدرسيين واللغويين وأشباههم ، من الذين يرتزقون من صلد الجمود ، ولا يرضيهم فهم الأدب العربي فهما حيا صحيحا .

أدباء الثورة العرابية

لكن القصة المصرية لها ماض أقرب إلينا زمنا وأحدث تعبيرا من هذه الأوديسة القصصية العربية . فهناك الكثير من القصص التي كان يكتبها عبد الله النديم في صحفه الأدبية إبان عهد إسماعيل ، وفي طلعة الحركة العرابية تحت ظل حكم توفيق. وهي قصص كان يضمنها آراءه عن الحياة والناس في صورة حكايات يكتبها باللغة التي يجرى بها اللسان العام ؛ وموضوعها الأحداث التي تتناقلها الألسن . وكان يهدف من ورائها إلى عرض أفكاره عرضا مسليا فكها يحبب إليهم قراءتها ويشيع لهم فهمها ؛ ويعبر عنها تعبيرا مستورا عن مبادئه ،لتفادي عنت الحاكم

المطلق السلطة .. وترجع قيمة هذه القصص إلى أنها كانت تؤخذ أخذا مباشرا من الحياة الواقعة وكانت تتسم بطابع شعبي صادق جعل الناس يتهافتون على قراءتها ، لكنها رغم صدقها التعبيرى كانت من الناحية الفنية القصصية بدائية تماما .

وكذلك كانت بقية القصص التى خطها أبناء هذا الجيل من الأدباء العرابيين وتلامذة الافغانى وأشياعهم ، كانت جميعها مجرد قوالب تصب فيها محرمات الإفكار ويرمز بها إلى ما لا يلزم أن يقال للناس . ولم تكن هذه الاقاصيص مع ذلك تخلو من طرافة وجدة وإن شابهت الحكايات الدارجة .

المـــويلحى

أما الجذور الأصلية للقصة القصيرة عندنا ، فقد تكونت من مجموعة الأقاصيص التى كتبها المويلحى فى مستهل القرن باسم حديث عيسى بن هشام . فهذه الأقاصيص تعتبر أولى القفزات الموفقة لأدبنا المعاصر فى عالم القصة القصيرة . وقد لا يمكن أن يؤرخ للقصة القصيرة بغير كتاب المويلحى هذا ، فهو كتاب له دلالته البالغة ، وسيعيش فى أدبنا ما بقى هذا الأدب حيا أصيلا بعيدا عن خوادع الأبراج العاجية وانعكافات الذات ، لأنه أصدق وأسلم تعبير فنى أخرجه قاص مصرى عن المجتمع الذى عاش فيه .

... إن رحابة حديث عيسى بن هشام ، تلك الرحابة الموضوعية التى وسعت أفكار وآمال جيل ناهض ، فى معارضته لقرون سحيقة سابقة من قرون الظلام ... تضعه كعلامة بازغة من علامات الطريق فى سير القصة المصرية القصيرة إلى الأمام .

وإلى جانب هذا فإن قصص المويلحى لا تفتقر إلى سلامة القالب الفنى، وبراعة التصوير، وحبكة الجو، والالتفات الذكى إلى الشخوص الحية . وفيها من النفاذ للحياة الإجتماعية المصرية والغور فى أعماقها ما تفتقر إليه بعض قصصنا حتى اللحظة .

ومن أقاصيص عيسى بن هشام ماينطق بكثير من العادات والتقاليد الجامدة التى لاتزال تزاولها فى خضوع واستسلام لم يرض عنه المويلحى على بداية القرن .

من أجل هذا كان كتابه قفزة تخطت كل ردة رجعنا إليها بعده ؛ وسبق ، ظفرت به بصيرة واعية بالقيم الجوهرية الكامنة فى حياة العصر الذى عاشه صاحبه .

كانت قصص المويلحى تساير حركة الترجمة التى تزعمها فتحى زغلول وحمل لواءها من الكتاب والأدباء المنفلوطى والسباعى، ومن الشعراء حافظ ومطران . وفى هذه الفترة اتخذ الأدب المصرى طريقه إلى القصة بالترجمة والتعريب . غير أن وقوع الحرب العالمية الأولى وفرض الأحكام العرفية، وما تبع ذلك من تشريد كتاب الحزب الوطنى وأدبائه، وتطبيق قانون المطبوعات تطبيقا صارما ، تمهيدا من الانجليز لفرض حمايتهم المقيتة على مصر ، أوقف النهضة الأدبية التى صحبت وثبة مصطفى كامل إيقافا إجباريا . .

ولكن.. ما أن انتهت الحرب حتى عادت مصر عام ١٩١٩ تطالب باستقلالها المسلوب، فكان ذلك إيذانا بنهضة أدبية قويمة، هى تلك النهضة التى أنجبت كتابنا المعاصرون الكبار ، الذين كان لهم فضل خلق كثير من الفنون الأدبية كالرواية والدراما والتراجم وغيرها ...

ثورة ١٩١٩ وما بعدها

فكأن القصة القصيرة لم تكن غريبة عن أدبنا تماما ! .. لكنها لم تزدهر الإزدهار الفعلي إلا بعد جيل الثورة القومية ؛ ولهذا دواعيه ، فإن النهضة التي ولدتها تلك الانتفاضة القومية العارمة كانت نهضة تسجيل عريض ولم تكن نهضة أقصوصة . فالابتداع كان إلى جانب الرواية. وقد جنح شيوخنا الأدباء من البداية إلى الرواية والتراجم ، واهتموا بالنقد والشرح ، أكثر من اهتمامهم بممارسة القصة القصيرة بوصفها فن الحياة اليومية في تجددها المستمر . ذلك أن التغير الذي أحدثت الثورة ، والذي أسفر عن اعتلاء طوائف الوسط من الأفندية أعوان الباشوات إلى صدارة المجتمع ، فرض على هذه الطوائف وكتابهم النزوع إلى نشدان الاستقرار ، وتحتم لتوضيح قيمهم ورسوخ مثلهم الجديدة في حكم المجتمع وسيادته ، أن تسجل هذه القيم في قوالب مطولة كالرواية . وتلك ظاهرة في التاريخ الأدبي تصحب عادة مثل هذا التغير الشامل .

لكن التغير المنشود في المجتمع الجديد سرعان ما فات الطوائف الوسطى بحكم تقلقل كيانهم الاقتصادي نتيجة لبطء التطور وبفعل سيطرة الاستعمار وتكالب الرجعية . ومن أجل هذا عجزت أنفاس كتابهم حتى عن إخراج الرواية التي تؤرخ لوجودهم . . ولم يظهر بعد « زينب » لهيكل « وعودة الروح » للحكيم « وابراهيم الكاتب » للمازني لم يظهر لهم شيء يعتد به . . وبذلك انفسح المجال للقصة القصيرة وكان من أقوى الدوافع التي أسفرت عن انبثاقها هذا الانبثاق اللاحق ؛ التطور الذي طرأ على الحياة المصرية الاجتماعية في أعقاب النهضة القومية . إذ أن هذا التطور

شكل المجتمع بمظاهر وأشكال جديدة متغيرة ، كان لابد للتعبير عنها وعن تبدلها المتصل من فن يناسبها .

المــــازنى

وكذلك وقع عبء ابتداع هذا اللون على كاهل الرجل الذى كان له من طبيعته اليقظة ، وحسه المتفتح وعقليته المجددة المتجددة واستجابته المرهفة للحياة اليومية المتغيرة أبداً ، مايؤهله لأن يعيش حياة الأقصوصة دواما . وكان المازنى صاحب ميزات كثيرة فوق ما ذكرنا .كان عصرى الثقافة وأكثر تضلعا من غيره فى الترجمة ، كما كان أسلوبه طيعا أقرب إلى الحياة والتطور من أساليب لداته .

وفضلا عن هذا فإن المازنى كان أكثر توفيقـــا فى استيعاب قيم الطوائف الوسطى ومثلهم الشائعة ، بل كان أمثل من درج عليها حتى استنفدها استنفادا طيبا فى روايته « ابراهيم الكاتب » . ولأن المازنى لم يكن صاحب شخصية بسيطة التركيب بل وكان صاحب عقلية لا تطيق فهم ثابت ولا تركن إلى فكرة بعينها ، فقد تضارب إحساسه بهذه القيم مع المجتمع الذى عز عليه الاستقرار وأرهقه التبدل المستمر ، فاتخذ القصة القصيرة وسيلة فى التعبير . وكان المازنى بذلك أسبق كتابنا الكبار فى القصة القصيرة .. وليس لقصص المازنى طابع يميزها أكثر من القدرة على التعبير الفنى وحبكة الصياغة وحلاوة أسلوب السرد . لكن الذى أضعف من قيمتها الموضوعية ، أن وقتيات المازنى وهواجسه ونزواته العقلية والحسية الطارئة ، كانت تسيطر على وعيه بحياة المجتمع الذى عاش فيه ، وحاول أن يعبر بقصصه عنه .

على أن المازنى الذى ما كاد يكتب الشعر حتى أقلع عنه فى سنوات قليلة معدودة سرعان ما أقلع عن القصة القصيرة ؛ لاسيما بعد أن أصبح قلمه فى المقال السياسى أجدى عليه حين يملأ صفحات الجرائد اليومية السياسية ، من أى مجهود أدبى ، وبالذات كتابة القصة القصيرة ...

الصحافة الحديثة

شيئا فشيئا ارتبطت القصة القصيرة بحياة المجتمع والناس على أنها تعبير يتفق وحياتهم التى أصبحت سريعة خاطفة . وازدهرت حركة تعريبها وتأليفها ازدهارا حيا . وكان لانتشار الصحافة الحديثة أكبر الفضل فى ذيوعها ، ولو أنها ظلت فى مبدأ الأمر غريبة عن الصحافة حتى أننا لنجد صحيفة السياسة الأسبوعية ، التى كانت أولى مجلاتنا الأدبية الجهيرة تغفل القصة القصيرة ، وتفرد معظم صفحاتها للنقد والبحوث وترجمة المسرحيات الدرامية المقررة على المدارس وقتذاك . وبالمثل انصرفت مدرسة « أبولو » وهى مدرسة أدبية ذات أثر تاريخى كان يتزعمها المرحوم الدكتور الشاعر « أحمد زكى أبو شادى » انصرفت بجمهورها إلى الشعر والنقد وخلق ألوان ابتداعية من الأدب تعارض بها الأدب التقليدى للجيل السابق عليها . وكان طبيعيا أن لاتعنى بفن القصة القصيرة لأنه لم يكن من بين فنون السابقين .

محمود تيمور

وكان لزاما إذن أن تكافح القصة القصيرة لتقف على قدميها وتبدأ السير قبل أن يقضى عليها الإغفال بين فنوننا الأدبية الحديثة . وقد

تصدى محمود تيمور لهذه الغاية فضمها مجموعة فى « كتاب » ولم يكن محمود تيمور أول من أقدم على ذلك لكنه كان أخلص وأثبت وأكثر مثابرة من غيره .

ولا شك أن ظروف تيمور المالية قد أعانته كثيرا ؛ لكن إيمانه بالقصة القصيرة وقدرته على كتابتها كانا من أقوم دوافعه . وقد حاول تيمور من مطلعه أن يخلق حوله مدرسة من كتاب القصة القصيرة ولكنه لم يوفق . ومع ذلك فإن إنتاج تيمور فى تقديرنا يعتبر نقطة ارتكاز هامة لأن مجموعاته مهما قيل فيها تعتبر سفرا نابضا بالواقع المصرى . حقيقة أن واقعيته واقعية تسجيلية صرفة تلامس حياتنا ملامسة خفيفة ولا تكاد تتحسس أعماقها . لكن تيمور هو رائد القصة القصيرة بلا جدال طالما أنه الوحيد بين كتابنا الذى اختط لنفسه وتابع فى إنتاجه للقصة القصيرة أقوم مذاهبها . ومن تيمور انبعث ولا زال ينبعث التيار الواقعى . وإذا كان قد يقال أن واقعية تيمور واقعية مترفة رقيقة إلا أنها فى مجموعها واقعية صحيحة ، لأنها ترود الحياة عامة وتجهد فى الالتصاق بحقائقها الفعلية . وتيمور إذ يطل من نافذة حجرة مكتبه على ركب حياتنا الاجتماعية تلفح ناظريه وتثيره الحيوية الكامنة فى شخوص الجموع العادية من الناس . لكنه يكتفى بالإسراع إلى مكتبه لتسجيل شواهده فى شغف وارتواء وإعجاب . ولو أن تيمور غادر مكتبه ونزل إلى الرصيف مع الناس ولم يخش مغبة العبور فى هذا الشارع المضطرب لكان قد قفز بالقصة القصيرة إلى أوج بعيد .

على أن الذى دفع تيمور إلى إخراج ما أنتج هينا لينا ، مرده تلك الحقبة الراكدة من حياتنا الاجتماعية . الحقبة التى سبقت الحرب الأخيرة

وصاحبتها والتى شهدت إنتاج تيمور الرتيب ينساب فى ارتياح لايرعده عناء. وذلك ما يجعله حتى اليوم حفيا بمواء القطط وسط قصف الأحداث.

مجموعات متقطعة

وإلى جانب تيمور خرجت فى القصة القصيرة مجموعات تعبر عن مذاهب شتى . فمنها ما جنح إلى الرمزية ومنها ما جنح إلى الرومانتيكية ومنها ما كان يتلون بأكثر من مذهب من المذاهب القصصية الشائعة . على أن الأمر قد انتهى بأغلب أصحاب هذه المجموعات من القصص القصيرة الجيدة إلى التقطع فى الكتابة مثلما فعل يحيى حقى وطاهر لاشين وغيرهما. كثيرين ممن دفعتهم سيطرة الصحافة وتضارب الاتجاهات التى يستنها الكتاب فى الأخذ عن المذاهب الأدبية المتضاربة إلى الانزواء والعزلة . ولم يثبت من هؤلاء على اتجاه واحد فى القصة القصيرة إلا عدد قليل سرعان ما كان ينصرف بدوره عن كتابتها .

والحق أن القصة القصيرة عانت كثيرا من هذا التأثر السطحى بمدارس الغرب القصصية بقدر ما عانت من سيطرة الصحافة . ومن هنا تجىء أهمية قصص تيمور التى يضاعف من قيمتها الفعلية تشبثه بالواقعية هذا التشبث الذى حفظ له مكانته المرموقة فى حاضر بل وفى مستقبل هذا الفن .

تأثير الصحافة

استحال على فن القصة القصيرة إذن من البداية أن يعيش مستقلا عن الصحافة ولهذا فقد احتضنته فى المهد صبيا . وتطور الأمر بمرور الزمن

من مجرد إفراد باب خاص للقصة القصيرة فى كل صحيفة إلى تخصيص مجلات بذاتها لكتابة وتعريب القصة القصيرة فخرجت مجلة « كالرواية » التى أصدرها صاحب الرسالة أحمد حسن الزيات قاصرة على فن القصة ، فكان لها أثرها فى التعرف على العديد من النماذج ، وعلى صفحاتها كتب المازنى وتيمور وأندادهما .

ولعبت مجلتى التى أصدرها أحمد الصاوى محمد دورا محمودا فى إنتاج القصة القصيرة وعلى صفحاتها كتب الكثير من الهواة ومن الكتاب المعروفين أيضا ومنهم طه حسين أحيانا وابراهيم المصرى فى أحايين كثيرة .

ابراهيم المصرى

وابراهيم المصرى واحد من النجوم التى تألقت فى سماء القصة القصيرة زمنا إذ كان له فى كتابتها فلسفة وطابع ميزه عن غيره . لكنه لم يستطع أن يخلق مدرسة مستقلة بذاتها وان كان فضله لا ينكر فى التنبه الباكر إلى أهمية اختيار الموضوع الانسانى وإخضاع القالب لمعالجة المشاكل الحية .

وقد أدخل المصرى على هذا الفن طرائق مستحدثة منها أسلوب التحليل النفسى لكنه كان مقلا فى انتاجه على جودة ما كتب . وكانت تنقصه الحيوية اللازمة لمعاركة الركود الذى خيم على الحياة الأدبية قبل الحرب الأخيرة وخلالها . كما أنه لم يكن صلبا فى إيمانه الدافع برسالة القصة القصيرة . ولعل مرد ذلك تنائيه عن التأثر تأثرا عميقا نابضا بحياة الجموع ومستقبلها .

ومن المجلات التى اهتمت بالقصة القصيرة مجلة «الهلال» التى أفردت

لها مكانا فسيحا بين أبوابها الشهرية . وكذلك فعلت مجلات دار الهلال الأسبوعية . وفيها ظهر الكثير من القصص الحسنة التى كانت تأخذ موضعها أخذا صحيحا من الواقع سيما ما كتبه « أبو نضارة » ثم « أحمد جلال » . وكلاهما كان يطبع قصصه بالطابع الاجتماعى وقد أجادا فى الارتقاء بالحبكة القصصية وخلق العقد ومعالجة المشاكل بطرائق مثيرة . لكن هذه القصص وما يكتب على نمطها اليوم فى تلك المجلات وغيرها بداهة لا تمثل نضجا قصصيا وان يكن فيها من جدية التناول ما يرفعها عن مستوى القصص العابثة الأخرى التى تجانبها على نفس الصفحات .

واستأثرت الصحافة بالقصة القصيرة عهدا بعيدا . وقد جاء وقت صدرت فيه كثير من المجلات القصصية الأسبوعية ومنها مجلة « الجامعة» والعشر ثم العشرين وبعد ذلك الثلاثين قصة أيضا ...

محمود كامل المحامى

ومحمود كامل المحامى هو صاحب هذه المجموعات المتضاعفة من القصص ورأس مدرسة من طابع معين ؛ هى المدرسة التى تتلمذ فيها معظم كتاب القصة الصحفية القصيرة الراهنة . وعند محمود كامل والشيع التى تابعته يتمثل هذا التراوح الذى تميز به الطوائف الوسطى من اعجاب بحياة من فى القمة « زيزى وفيفى وشيشى » ومن داخل قصور الزمالك وفيلات جاردن سيتى وفى طريق الهرم الصحراوى على متن الباكار والرولزرويس الى ازدراء بتلك الحياة ومقارنة بينهما وبين حياة الفن والصخب فى الملاهى والمراقص تارة ؛ وبين هذا جميعه وحياة الريف الواجمة الجامدة تارة أخرى حيث يلعب الجهل مع التقاليد الموروثة العقيمة دورا رئيسيا فى تحطيم

للشرف والعفة وبقية القيم الجوفاء التى يسهل التشدق بها ، لأنها مثل وأخلاقيات قد يتشدقون بها ولكنهم لا يحققوها إذ هى أقل روعة وبهاء في جاذبيتها ولا تنيلهم ما يشوقهم فى متع أصحاب الدم الموروث والمال الموروث . ولهذا كان محمود كامل المحامى هو بحق الأب الشرعى لكل ما يكتب اليوم من قصص صحفية .

وإلى هذا اللون الباهت من القصة القصيرة تضم فلول الكتاب الصحفيين كالتابعى وأشياعه من محررى الجرائد الذين جربوا كتابة القصة القصيرة . فهؤلاء يكتبون قصصهم لمقابلة رغبة جمهور متزايد من القراء لا تعنيه قيمة القصة التى يقرأها ، بقدر ما تشوقه الأساليب الصحفية التى تبذل فى اخراجها ، الاخراج الصحفى المثير لأبسط الغرائز وأوهى الأحاسيس وأحط الفكر . ولقد ساد هذا النوع من القصة القصيرة وسيطر حتى غدا قوام أدب الصفحة الاخيرة والصفحات الاضافية التى كانت تطلقها قيود التموين ويطلقها أصحاب الصحف على جمهور ما بعد الحرب .

وتطورت هذه القصص فى السنين الأخيرة بتطور رغبة قراء الجرائد والمجلات ، غير أنها مهما اختلفت ألوانها تقوم على استنفاذ أخيلة القراء وأوهامهم ، وتستند إلى تحريك الوعى الضعيف الباطن والآمال الفارغة التى ترد القارىء من غفوة اليأس والقنوط إلى رحابة سراب الأمانى البعيدة ، لأن فيها نفس التسلية التى فى أفلام السينما ... الثراء المفاجىء الذى يتمناه القارىء ، ومتعة الحس الجنسى الذى يكابده الشاب والفتاة ثم فيها أنت وأنت تحب حبا عفيفا طاهرا يدفعك إلى البكاء وحبا دنسا آثما يدفعك إلى احتقار الحياة ... وبالاختصار فيها نفسك وأنت تهرب منها إلى أبعد ما تمنيت . وحياتك وأنت تغرق فى نسيانها داخل أوهام

ممتعة وأمنيات رائعة .. فهي جماع ما يمكن أن نسميه الفجر الكاذب لأدب القصة القصيرة فى مصر، وهذا اللون يغشى الآن معظم صفحات مجلاتنا الأسبوعية وتفيض به المجموعات الأنيقة للطبعات الفاخرة التى تزين واجهات المكاتب .

حاضر القصة القصيرة

هكذا كان ماضى القصة القصيرة فى أدبنا . وهذا بعض حاضرها .. ولكنه ليس كل حاضرها ..

فما من مشتغل بالكتابة والأدب وما من صحفى ليس له قصة أو مجموعة قصص ، لأن إنتاج القصة فى أدبنا أصبح من الوفرة والكثرة بحيث يكاد يطغى على الانتاج الفنى فى بقية ألوان الأدب الأخرى . ورغم ذلك فقد يندر أن يقع القارىء الجاد على قصة أو مجموعة قصص قصيرة تستحق العناية والتقدير ، بعد أن بلغنا ما بلغناه من تطور، وبعد أن كتبنا هذه الآلاف المؤلفة من القصص . ولقد انتهى الأمر أن أصبحت القصة القصيرة تشغل مكان المقال الأدبى عند كتابنا الكبار بل وأصبحت باباً ثابتاً فى كل مجلة أسبوعية وفى معظم الجرائد اليومية .

ونحن لا نستطيع فى مثل هذا التقديم أن نحدد أمام السيل المنهمر من هذا الإنتاج اليومى الدفاق، شرائط القصة القصيرة وأصولها، إلا إذا عرضنا لتطورها الراهن عرضا عاما وأولينا العناية الضرورية لما تبلور حتى الآن من مذاهبها عند مختلف الكتاب.

وليس من شك فى أن لنا من ماض القصة القصيرة هذا، تراث ضخم،ولكنه بالنسبة لذلك اللون من الفن، تراث واهن لا يجدر الاحتفاء

فيه بغير القيمة الموضوعية ، أعنى الدلالة التسجيلية الواقعية التى حواها إنتاجه المختلف . هـذا إلى وجوب تقدير القوالب الفنية التى ابتكرت وصبت فيها تلك الأقاصيص وهى بالمثـل وفى أغلب رسومها يعوزها الصقل الفنى الآخاذ الذى يفقدها إياه عامة ، غثاثة الموضوع . والجدير بالذكر فى هذا التراث ما خطه شيوخنا الأدباء الذين جاءوا يكتبون القصة القصيرة فى ختام ماضيها وبداية عهد ازدهارها .

توفيق الحـكيم

يمثل توفيق الحكيم فى أدبنا المعاصر ظاهرة التوثب ويلبس مسوح الفنان الخالص ، وهو وإن كان صاحب رواية قويمة وصاحب حوار مسرحى نقى ، ولا نقول مسرحية ، لأن المسرحية عندنا فى حكم العدم تقريبا فإنه الفنان الهارب الذى كان أسبق رواد البرج العاجى وأبرز المتضائلين فى حكر الصحافة . اختار توفيق الحكيم بعد أن تخطى الأربعين أن يعيش متكمشا فى صقيع جموده الفكرى على ما فى داخلية نفسه من حرارة وحيوية وطاقة من التجارب الفنية كانت كفيلة كلها بأن ترفعه إلى الصدارة دواما .

وهو يقف اليوم فى المنعرج الذى يطل على ميداننا الأدبى الفسيح يشهد احتدام الصراع بين أدب يتفتح وأدب يزوى . وقد انبرى من هذا المنعرج ليكتب القصة القصيرة وهى فى مسيرها الأخير إلى الحلبة . ودخل فملا مع الأبطال . لكنه دخل فوق صهوة جواد هزيل ترفرف من ورائه أعلام وبنود ماضيه المزركشة ، كما ترفرف الأعلام خلف موكب الخليفة الأحمـــدى فى زفة المولد البدوى . إذ ليس فى قصص

توفيق الحكيم القصيرة شيء ، إلا أن عليها اسمه ، وفيها من داخلها بعض معالمه . فيها جمال الحوار أحيانا وفيها الأسلوب المطواع الذى لا يعبر عن شيء . . وهنا . . وهناك رتوش يد صناع تلعب فى ملال بفرشاة فرغ طلاؤها . وليس من ورائها بعد هذا حتى لقارىء التسلية إلا الندم على الوقت الذى ضاع . ذلك أن توفيق الحكيم قد فاته قطار القصة القصيرة وهو الذى استنفد الجهد الجهيد ليطلع على رصيفه .

وإنى لأراه اليوم وقد طغى عليه الظلام يتحامل على عصاه إلى مقعد قصى من مقاعد « بوفيه المحطة » فى طلب زجاجة من الكوكا كولا المثلجة ليشربها مع هبات النسيم الرطب ، فى ذلك الجو الخانق الحار حتى يحين موعد القطار التالى الذى لن يقف على محطة فرعية مهما أشار الأديب الكبير بعصاه .

طه حسين

عاش طه حسين كالعملاق ناشرا ظله فوق العديد من أجيالنا لأنه كان أبرع من يتطلع إلى المستقبل بين أدبائنا الكبار . ولذلك أشعت فرجات الضوء الذى كان خابيا من تحت عباءته فيما كتب من القصة القصيرة . وجاء يوم ، أدرك طه حسين أن للقصة القصيرة كما لكل لون من ألوان الفن هدف وغاية . وفى يوم ثان أدرك أن الغاية التى لا تسموا عليها غاية هى أن يعبر الأدب عن الحياة وبالذات حياة الجموع لأنها وحدها الحياة الحقيقية التى تبنى على قيمها الاساسية الراسخة وتنبعث من حرارتها الكامنة جميع الاشكال الظاهرة من أشكال الحياة الاجتماعية التى تشاهد فوق هذه القاعدة الواسعة . وفى اليوم الاخير كانت غاية الفن عند طه طه حسين أن يرق بالقيم التى تنبعث من حياة الجموع إلى مرتقاها وأن

يسرى بالحرارة التى تفيض بها حياتهم إلى السطح حيث لا حرارة ...
ومن ثم كانت القصة القصيرة عنده هى قصة «المذبون فى الأرض» وعلى
هذا الجواد الامرد ، دخل طه حسين الحلبة لتدوى الجوع هاتفة من فوق
مقاعدها .. لكنه سرعان ما تعثر على نهاية الشوط لأن المضمون الواقعى
الحى للقصة القصيرة ، لا يمكن أن تقومه الافكار المجردة السارية ، والأسلوب
الحلو المطواع الذى تتميز به كتابات الاستاذ العميد .

وغير الشيخان فلم يطرق أحد من شيوخنا الأدباء أبواب القصة القصيرة .

يحيى حقى

وقد الحنا انه كان صاحب سبق فى القصة القصيرة قبل ان ينداح
فجرها الكاذب . . . واما ما نقرأ اليوم من انتاجه بعد ان تبين الخيط
الابيض من الخيط الاسود من الفجر ، لا نستطيع الان نقف لنشهد
صاحب « قنديل أم هاشم » يمتشق الحسام من جديد وينزل إلى الحلبه
فى اصالة وصدق .. وإذا هو يملاء القنديل بالزيت ، ويشعل مسرجته ،
ويسير مع الضحى بنفس الطريق إلى خارج السرداب المعتم ، حتى يشهد
مطلع الصبح . . هناك عنـــد نهاية الربوة ، حيث تقف الجوع فتغطى
قرص الشمس .

الاحتكار الصحفى

إن الظاهرة البارزة اليوم فى كتابة القصة القصيرة هى نزوع هذا
الفن وقد أدرك طور النضج، إلى أن يقبع فى أحضان الصحافة ، التى لا تنى
ترضعه على كبر . والواقع أننا نجوز فى تاريخنا الأدبى مرحلة فاصلة .

إذ أن مصير أدبنا المعاصر بات معلقا بالاحتقار الصحفى لكل إنتاج أدبى أو فكرى يرجى له الذيوع، خاصة بعد استحالة وجود مجلات أدبية مستقلة يمكن أن ترحم الإنتاج الأدبى من نهم مطابع المجلات والجرائد وعجلتها القاتلة .

وإذا كان هـذا الوضع قد دفع ببعض الدور الصحفية إلى إصدار سلاسل لمجموعات شهرية من القصة القصيرة، بل وأثار حماسة بعض من لهم غيرة على فن القصة لتكوين مجموعات أدبية مثل « نادى القصة » بغية تحرير هذا الفن من ربقة الغول الاحتكارى . إلا أننا مع ذلك لا نستطيع أن نجزم ، رغم ظهور كثير من المجموعات القوية عن هذا السبيل، بأن فن القصة القصيرة عندنا قد أدرك طور النماء الفعلى . فلا زال للقصص الصحفى الهش ، الغلبة على معظم ما يخرج من هذه المجموعات .

ولن نحاول أن نعرض هنا لبعض مجموعات القصة القصيرة التى صدرت أخيرا من غير واحد من الشبان المجيدين ، وإنما ننوه ، بأن أغلب هذه المجموعات إن لم تكن جميعها يلزم ، إذ تجاهد التطور نحو آفاق أرحب ، أن تتحرر نهائيا من ظاهرة الخرائب التى قد تجتذبها إليها لهفة الرواج الصحفى عند رؤساء التحرير ، تلك اللهفة التى يهدرون بها كل المقومات الصحيحة لفن القصة القصيرة بزعم الاستجابة لرغبة جمهور القراء . .

التطور الأخير للقصة القصيرة

ومع كل فإن هذه السخرة الصحفية ليست وحدها مكمن الداء ، وسر البلاء ، لأن أدب القصة القصيرة عندنا وإن كان قد ارتقى فى القالب والشكل ارتقاء طيبا ، على مدى هذا التطور البعيد ، ومن خلال هذه التجارب الكثيرة ، فإنه لم يبلغ مرحلة النضج الصحيح لأسباب أبرزها :

أولا:

الوعى الاجتماعى

يتأثر أدبنا المعاصر تأثرا كبيرا بالمجتمع الذى نعيش فيه لأنه كأى أدب خلقه الإنسان ، تعبير اجتماعى . وأدبنا المعاصر فى تأثره هذا يخضع بالدرجة الأولى لعوامل اجتماعية صرفة ، وقد خضع ولازال يخضع لتأثير هذه العوامل فى جميع فنونه وألوانه . ونلمس ذلك أكثر ما نلمسه فى القصة القصيرة لأنها ترديد سريع لتجاوب الفنان مع الحياة اليومية فى مشاعره وأخيلته وكافة مكوناته الخالقة . ولهذا تنطق قصص المازنى فى تعبيرها عن مجتمع الأواسط، بغير ما تنطق به قصص تيمور فى تعبيرها عن المجموعات الشعبية الواسعة . كما تنطق قصص طه حسين وهو يحملها إلتزاما اجتماعيا بغير ما تنطق به قصص تيمور التى يهدف بها الكشف عن مكنون النفس البشرية .

وعلى غير ما تنطق به قصص هؤلاء جميعا ، تنطق قصص كتاب القصة من الشباب التقدمى . والخلاصة عندنا أنه كلما اتسعت الآفاق فشملت حياة المجموع، وارتفعت جدية التناول إلى الارتباط بهذه الحياة والكلف بتقدمها ومصيرها ، كلما حققت القصة المصرية القصيرة الرسالة الأصيلة لقيام الأدب المصرى الحقيق . وهو الأدب الذى ينبع من الشعب ليعبر عن الشعب . إذ لا فن للفن ولا استقلالية للفن ولا حرية للفنان بدون تحمل هذه المسئولية الأساسية .

فالأساس عندنا فى إنتاج القصة القصيرة هو وعى الفنان المنتج نفسه لأن وعى الفنان بمجتمعه هو الذى يحدد قيمة إنتاجه الفنى . . ولا مجال

هنا لمباحثة دعوى خلود الفن ، هـذا الخلود المطلق الذى يجوز الأجيال والحقب . فالفن الواعى الذى يعبر عن الحياة يجوز تأثيره سنى التاريخ لو إلتزم صاحبه برفعه هذه الحياة وتقدمها ...

ثانيا :

المسئولية الأدبية

ولا يرجع انعدام الوعى الاجتماعى عند أدبائنا الحاليين، لضعف مقدرتهم الفنية بقدر مايرد إلى انعدام المسئولية الأدبية، وهذا مايدفع معظمهم إلى الانطلاق المقيت الذى ليس من ورائه غاية أو هدف ، خلى الشهرة الفارغة، والكسب الضئيل ، حتى ولو كان ذلك على حساب أشرف القيم الإنسانية وأعزها .. وفى آلاف القصص التى تنشر كل يوم مايشهد بذلك الجرم . . .

ثالثا :

ثقافة الفنان

ولا شك أيضا أن للثقافه التى يتمتع بها الفنان أثر وأى أثر فى إدراكه وتكفله بهذه المسئولية الادبية، ومن أجل ذلك كانت الثقافة بمثابة أسمنت البناء فى كيان الفنان الخالق . وأغلب كتاب القصة القصيرة عندنا ، والمشهورين منهم خاصة، لا يمكن أن يعوضهم وحى العباقرة وإلهام النابغين ، هذا العنصر الأساسى الذى ينقصهم، والذى تتساقط لانعدامه شوامخهم البازغة ، تساقط البيوت المصنوعة من أوراق اللعب .

هذه فى اعتقادنا هى العوامل الرئيسية التى تؤثر تأثيرا كليا على أدبنا المعاصر والقصة القصيرة بوجه خاص .

أما السادة الذين يكتبون القصة القصيرة فيملأونها بأجساد العرايا وقبل الوالهين ، وزفرات العشاق . والسادة الذين يسخرون الواقع والحقائق الواقعة للسلبية التى تفرضها عليهم ذواتهم المريضة . والسادة الآخر، الذين يهرفون بالتجرد للخلق الفنى لوجه الفن وحده .. فإن واقع زماننا الراهن أصبح واقع قاس لا يمكن أن أن يرحم أحلام يقظتهم ..

ولذلك فإننا نراهم اليوم، يتقلبون قلقين فوق مضاجعهم الفنية الناعسة بعد أن خرجوا من أمجادهم المولية بقبض الريح .

وأما الذين يصمون القصة الواقعية القصيرة بأنها دعاية وافتعال ... فهؤلاء لايدورون مغمضي العيون ، كمايدور الجاموس فى الساقية ، وإنما هم طلقاء، يرعون الكلأ كالجديان فى واد غير ذى زرع .. ولو قد تزاحموا مع القطيع فى صخب حياته ، وأرهقتهم سياط الرعاة العتاة، فتقاطر منهم العرق، وسال لهم دم. وانفرطت على وجوههم دموع؛ لصرخت كتاباتهم بما تنوء به القطعان، ولا حسوا بأن ليس فيما يضج منه الناس، وما يأمل فيه الناس. أى دعاية أو افتعال ، أو خروج على الغاية التى لا يمكن أن يكون للأدب المصرى المعاصر اليوم أى غاية سواها.

الانسان المصرى هو أولى المخلوقات بأن يعيش حياة إنسانية لائقة بمصريته ، وتلك عندنا هى الرسالة الجوهرية الحقيقية للأدب المصرى المعاصر... وهى رسالة وطنية من أضخم الرسالات وغاية انسانية من أشرف

وأنبل الغايات ، التي يمكن أن يهدف اليها الآدب فى أى عصر من العصور . . .

لكنها رسالة لايمكن أن تتحقق الا بالأخذ من الحياة المصرية الصميمة أخذا صادقا أصيلا يسنده الوعى الاجتماعى الناضج ، وتذكية المسئولية الآدبية الصحيحة ، وتقومة الثقافة الحرة . . .

وهذه العوامل الرئيسية هى التى يجب أن نبنى عليها أحكامنا عن كل جديد فى انتاجنا الادبى الراهن . . .

نعمان عاشور



« الاهداء »

إلى التي شجعتني ان أنشر هـــذه التجارب لأحقق بعض فكرتي عن القصة القصيرة . . إليها أهدى أول تجاربى . . إلى زوجتي وأم ولدى وصديقتي فى الطريق الطويل...

نعمان عاشور

الفقير عبد الله



عبد الله بن أم عبد الله ، لم يدخل السجن إلا مرة واحدة . رغم أنه كان يلعب القمار ويشرب الخمر ويدخن الحشيش ويتعاطى الأفيون « والأخيرة من الممنوعات» ورغم أنه فى كل ليلة تقريبا كانت له مغامرة مع إمرأة أو أكثر من البغايا . ولم يدخل الجامع ولا مرة، رغم أنه أصبح لا ينقطع دقيقة عن التسبيح « بالكهرمان» وقراءة الفاتحة والاستماع إلى آى الذكر الحكيم فى إنصات وخشوع لا يتصوره أتق الاتقياء . ولا يكف عن الدعاء والتوبة والاستغفار بصوت عال، يسمعه جميع سكان الشارع من أقصاه إلى أقصاه .

* * *

عبد الله بن أم عبد الله ... رجل عرك الحياة . . وذاق حلوها ... وذاق مرها أيضا . . ولو بنسبة ضئيلة! وقد تاب الله عليه اليوم من كل موبق ، وهداه إلى الصراط المستقيم، فتزوج وإن لم ينجب ، تاجر وربح ورضى بما صار إليه من هدوء وصلاح وتقوى وصبر مقيم ..

عبدالله ابن ام عبدالله .. أسمر الوجه ممشوق القوام .. خفيف الظل باسم الثغر .. عصبي المزاج .. حاد الطبع .. سريع الغضب عف النفس طلق اللسان .. ولا يشرب فى اليوم بطوله أكثر من أربع أو خمس (تعميرات) وفنجان أو اثنين من القهوة.. وعشر سجاير (علبة صغيرة)،

أما الشاى فقد أقسم أن لا يتذوقه ، ولم يقلع عنه ، إلا بعد اكتشاف « الكوكا كولا » التى وجد فيها « غنى » عن كل شراب .

عبد الله ابن أم عبد الله .. صاحب بضاعة .. يبيع بالقطاعى ، عيش وجبنه وسجاير وخيار فى محل صغير . . وتحت يده « الواد حسن » يقف أمام صندوق الكوكا كولا وبجوار قفص العيش بينما عبد الله فى داخل المحل ، يزن الحلاوة ويملأ أكياس اللب « فهو يبيع اللب أيضا » ويصف البضاعة على الرفين . « وملحة فى عين من لا يصلى على النبى المختار » .

عبدالله ابن ام عبد الله .. تاجر نضيف .. فى يده المنشة السعفية وفى جيبه المنديل الابيض الكبير وعلى رأسه الطاقية الحرير . وفى رجله المركوب الاصفر « الفاسى » الجديد. يجلس على الكرسى داخل المحل يدخن السيجارة أو « يشد نفسين حمى » أو يشرب قدح القهوة . وأحيانا ما تراه فى حركة دائمة . فهو يناول هذا الزبون ورقة الجبنة بيده اليمنى ويأخذ من الآخر ثمن البيض بيده اليسرى ، ويشير إلى صبيه حسن بطرف لسانه أن يعطى « الست » رغفين عيش أبيض طازة .. وفى زاوية من جانب المحل تنظر أم عبد الله إلى وحيدها وتبتسم كلما رأته يطرح بالنقود داخل الدرج فى الصندوق الخشبى ، فتقع الصاغات على الخمسات وترن رنينا عاليا تتفتح له النفس .

عبدالله بن أم عبدالله .. جاوز الخامسة والثلاثين .. فأم عبدالله تذكر جيداً — أن المرحوم زوجها مات وعبد الله ، مطلوب للقرعة . وقد مات المرحوم منذ عشرين سنة على الاقل ، أيام كانت تتاجر فى المسلى وتبيع الزبد وتدور بها على البيوتات فى ذلك الزمن الطيب « إللى كان الريال فيه يساوى جنيه » .

وكان أبو عبد الله ، المعلم سليم ، كان نقاشاً ، أحسن نقاش فى زمانه . ولكنه كان سكرياً وكان يحب النساء ولولا إن أم عبد الله كانت صاحبة تجارة وصاحبة مال، لتزوج عليها . ولكن أم عبـــد الله كانت امرأة تستطيع أن تشترى له أكثر من زجاجة فى الليلة الواحدة . وقد مات «عليه الرحمة» . وترك عبد الله على وشك الإنخراط فى سلك الجيش لولا أن شيخ الحارة، أرشدها إلى أنه وحيدها، وأن فى الإمكان عدم تجنيده ما دام والده قد مات وتركها ولا عائل لها غيره . وقد دفعت فى ذلك خمسة جنيهات لشيخ الحارة ، كما زودت منزله العامر بخزين المسلى لمدة سنة تقريباً . واحتفظت بعبدالله وحيدها سليما معافياً . ولم يدخل الجيش مع أن أغلب أصحابه (ياحبة عيني لبسوا عساكر) .

على أن عبد الله بن أم عبد الله لم يكن صاحب حرفة . فلم يعلمه والده شيئاً . دخل الكتاب لحفظ القرآن أو بعض السور . ولكنه لا يعرف الكتابة ولا القراءة حتى اليوم، فقد عاش فى كنف أمه وتربى على يديها كما تربى والده تماماً . ولم تكن أمه ولا والده يعرفان القراءة والكتابة بل كان كلاهما ، عبدالله ووالده ، يأكلان من كدها ويصرفان من مالها . حتى سقط الوالد صريعاً من الخمر، فانحصر الكد على عبد الله وحده . ومن هنا جاءت النكبة . !!

لم يعشق عبد الله الخمر كما عشقها والده . ولكن عبد الله كان صاحب داء آخر . . القمار . . «(قارتى) بعيد عنك قارتى» . فأضاع من مالها ما أضاع . (حسرة عليه) لو اكتفى بتدخين الحشيش لما حدث ما حدث ولو اكتفى بتعاطى الافيون . . ولكنه كان يلعب الورق . «والكتشينة»

وكان يلعب بمالها . ولقد زوجته ، واحدة وثانية ، ومع ذلك ظل يقامر ويقامر فكان يأتى على كل ما تكسب .

عبد الله بن أم عبد الله . لا يعرفه أحد بغير هذا الاسم . ولو قلت عبد الله فقط، أو لو قلت عبد الله بن المعلم سليم لما عرفه أحد .. ولكنه عبد الله بن أم عبد الله . . . . وإذن فالأصل أن نعرف من هى أم عبد الله ؟ ؟ ؟

هى اليوم عجوز أربت على الستين ، ولكنها مع ذلك ليست قبيحة بشعة كغيرها . ولا هى جميلة مقبولة فى سنها هذا . ولا هى عادية أيضا . كانت صاحبة تجارة واسعة . فقبلت أن تتزوج أبو عبد الله وكانت تبيع الخضار وكان لها اسم (وشنة ورنة) فى السوق الكبير تزوجت المعلم وفى كيسها أكثر من خمسين جنيها . حركتها فى تجارة الزبد والمسلى وانصرفت عن الخضار، فكانت تكسب وتكسب حتى احتفظت بالمعلم بعلا (راجل على كل حال) إلى أن مات ، فترك لها عبد الله وهى تبيع المسلى والزبد وأوشك عبد الله أن يفقدها مالها ويهدم تجارتها على المائدة الخضراء ، أو الأصح ، المائدة الخشبية وأحيانا على الأرض الملساء فى « البوكر والبصرة والكونكان » . ولولا تجاربها وحرصها وقدرتها على الاحتفاظ بآخر درهم ، لما استطاعت أن تتحول فى أخريات حياتها التجارية إلى بيع العيش بدلا من الاتجار فى المسلى .

أم عبد الله إذن امرأة تعرف كيف تزن القرش ، تضع المليم فوق المليم كما تختزن الرطل فوق الرطل، وتعرف كيف تحفظ القرش الأبيض لليوم الأسود . وكل يوم يجىء أسود ، فإن عبد الله لم يكن ليكف عن عن ملاحقتها . أنه يضربها، ويعرف كيف يحل عقدة لسانها «فين الفلوس»

عاو ز لوس » وفى كل مرة كانت تفكر وتراوغ حتى يجبرها الحب الخالص لوحيدها بعد أن يكون قد نهرها وبكت طويلا وكثيراً أن تنيلة مأربه ، وسرعان ما يعاود الكرة . أين يرمى بهذه الحفنات من الدراهم!! أنه لا يسكر كثيرا وإن كان يسكر .. ولكنه (قارتى يابنى ، ربنا باليه بالكتشينة .. قسمته ووعده)

على أن حياة أم عبد الله لم تكن قاصرة على جمع المال وإعطائه لعبد الله .. لا .. فلحياتها جانب آخر غير بيع الخبز والليمون والفجل والكرات وما إليها من بضائع آخر تجارة احـــترفتها .. أم عبد الله (معذورة وعليها عفريت) ... بل جملة عفاريت . يقول حسان الفكهانى المجاور لحانوتها الصغير (أن ليس هناك من عفريت يمكن أن يركبها أخطر من عبد الله ابنها) ولكنها كانت معذورة فعلا وكان عفريتها من النوع الذى لا يهدأ الا بالزار « عفريت عجمى » .. متقطع الزيارة لايسها من بداية حياتها بعد زواجها من المرحوم ولا زال يحل بها إلى اليوم مع أنها انقطعت عن حضور الزار أو عقده . ولكن لعل ذلك هو سبب زيارته ... انها تحس به رغم ما بلغته من عمر ... تحس به رأسيا فى أعماقها . أنه يأتى لماما وكانت إلى عهد قريب لا تستطيع الخلاص منه إلا بالتوجه للشيخ « مبروك » وهو ولى تقى يعيش فى خلوه بالجبل ولكن عبد الله سامحه الله ، يلعنها دائما كلما كان يسمع أو يعلم أو يرى أنها تحضر أو تعقد زارا . وكم من مرة سلبها مالها عنوة حتى لا يسرقوها «ويضحكوا على عقلها » ثم لا يرد لها مما يأخذ إلا القليل الذى يكفى لمواصلة البيع والشراء .

وفى هذه الأيام بعد أن استلم إدارة الدكان واصبح يقوم بنفسه على

تجارتها وهداه الله وتاب وناب وصلح حاله لا يسمح لها بأخذ قرش من الصندوق مخافة أن تعطيه للشيخ (قرد) الشيخ مبروك الذى تخفى بين ثيابها من تعاويذه ، مايكاد يزن نصف رطل زبدة .

وكذلك عاشت أم عبد الله . . تكد وتكدح فى سبيل بعلها ثم فى سبيل ولدها قرابة ستين عاما ، وهاهى قد شارفت القبر محرما عليها أن تنال من كدها مايشفى روحها . عاشت قذرة وذليلة تفيض العلل والاسقام بجسدها فلم تنشد يوما علاجا ولم تحاول أن تتزين أو تجدد ملبسها . وحتى الآن لاتنتعل مايقيها طين الأرض . أن التجارة تجارتها والمال مالها . والرجال من صنعها . فهى التى خلقت كل شىء ومع ذلك لاتجد فى يدها ما تستطيع أن تشفى به روحها وتهدىء نفسها مما يحل بها من « بسم الله الرحمن الرحيم . . العفاريت ياابنى . . العفاريت . . بعيد عنك » .

ومنذ أعوام قليلة هاجمت المباحث قهوة المعلم زيد وسيق كل من كان بداخلها من الزبائن إلى السجن . بعضهم بتهمة المقامرة . والبعض للتحرى . وكان بينهم عبد الله ، تحرر له محضر تشرد وخرج بعد أربعة أيام بضمانة شيخ الحارة فكان لهذا الحادث وقعة وأثره . . ومن يومها تغيرت حياة عبد الله تغيراً تاما . . . ففى ليلة خروجه من السجن جلس إلى أمه فى انصات يستمع إلى نصائحها . . وأخرجت أم عبد الله من كيسها خمسين جنيها وقدمتها لولدها بشرط أن يقلع عن ماضيه ويشاركها التجارة . . خمسين جنيه « تحويشة العمر اللى فات » .

وفى الصباح توجهت أم عبد الله مع زوجته الثانية « حسنية » إلى ضريح السيدة وأوفت ماعليها من نذور وبكت لأم هاشم (واستبكت زوجته) أن يتوب الله عليه ويهديه من « النيلة القهار » .

وانصرم أسبوع كامل وعبد الله يجلس بجوار أمه فى المحل يخدم الزبائن « ويجرى القرش فى يده » على مايقول المعلم زيد الفكهانى . . واستوردت البضاعة الجديدة . . بضاعة بمائة جنيه . . وخلع عبد الله الطاقية واستبدلها (بلاسة) قطنية وجلابية صوف (معتبر) ومركوب خفيف يسير به على الحرير . وانصرمت أيام وأيام وفى الثامنة من صباح كل يوم، يحضر عبد الله فيفتح الدكان وحده ويستلم العيش الوارد من الفرن ويصف البضاعة فى «البتارين» ويصفق بكفيه «يانبى . . . بركاتك ياست يا أم هاشم . . يانور المصطفى . . ياحبيب الله » .

وفى الظهر لايغادر عبد الله الدكان ، أنه يأكل هو وأمه ماترسله لها الزوجة من طعام مع « الواد حسن » الصبى الجديد الذى استأجره عبد الله بعد أن فرجها ربنا عليه « ببركة الرسول ورضاه » .

وفى ذات يوم انتظر عبد الله أن تحضر أمه كالعادة ليترك لها المحل ويزور أم هاشم ولكنها لم تحضر ، فأرسل إليها (الواد حسن) الذى لم يجدها « لاهى ولا حسنية فى الدار » . . وكان نهار . . « نهار اسود ونايل» .

ولكن ما وافى الظهر ، حتى أقبلت أم عبد الله ومعها حسنية تحمل لفافة بها بقية من الفول النابت ، وكانا قد توجها إلى السيدة ومعهما الفول . وقد مرت أم عبد الله على الفرن فأخذت ثلاث أقات من الخبز وقامت مع حسنية بإيفاء النذور . ووزعت من الفول النابت والخبز عند الضريح وسجدت لمقام « الست الطاهرة » شكرا وإكبارا . . بعد أن استجابت لندائها وتاب الله على ابنها وهداه . . وابتسم عبد الله ونادى بملء فمه « بركاتك ياطاهرة . . ياست يا أم هاشم » .

اعتاد سكان الشارع من أقصاه إلى أقصاه، سماع دعوات عبدالله التى لاتنقطع، والتى أصبحت بمثابة أصوات العربات فى غدوها ورواحها بالنهار وبالليل تماما . مع فارق بسيط . هو أن البائعين والشارين تعودوا كلهم بدون استثناء أن يتبعوا كل دعوة لابن أم عبد الله بما يناسبها من ابتهال . فإذا قال عبد الله « يانبى » ردد أغلبهم جهراً أو سراً « عليه الصلاة والسلام » .

وعاش عبد الله بشخصيته الجديدة هذه فى أغراق يكاد يبدو افتعالا، خاصة وأن عبد الله رغم كل ما ينادى به من صادق الدعوات وخالصها لا يصلى، وبالأحرى لم يكن يعرف كيف يصلى . ولم يتعود أن يصلى ولا يصوم كذلك . حتى الجمعة ! يذهب أغلب تجار الشارع وصبيتهم ويغلقون محالهم إلى الجامع...ماخلى عبد الله . ومع ذلك لم يكن فى هذا مدعاة للشك فى صلاحه وتقواه من جانب أهل المنطقة التى يقع حانوته فى دائرتها ، فكل زبائنه من الرجال والنساء والأطفال ، لاينادونه بعبد الله مجردا . وإنما يسميه الجميع « الشيخ عبد الله » مع أنه لا يلبس عمامه ولا يصلى . بل يشرب الجوزة أو لازال،ولم تنقطع بعد أغلب صداقاته القديمة، فصلته وبجزورة،القهارتى الحرامى لم تزل قوية، وإن كان لا يجالسه فى القهوة ، بل يحيه، ويدعوه إلى باب الدكان فى العصر ، وكثيرا ماطلب له تعميرة أو اتحفه بسجارة . غير أنه لا يصاحبه ولا يسايره فى الطريق . فهذا مستحيل لأن عبد الله يأتى إلى الدكان فى الصباح فلا يغادره إلا قبل منتصف الليل بقليل . يمضى إلى الدار توا . وكذلك كان عبدالله وفيا . طيب القلب . « شيخ على نياته » فإذا جاءه جزورة أو مر عليه فإنه يحيه وهو فى الدكان، فما كان من المستطاع أن يتجاهل تحيته . وكان

جزورة يقابل عبد الله بالتحية التي تأثر له . « الورد فتح بجمال النبي ، ياخير البرية . ياحبيب الله ياحمد » . ويرد عليه عبد الله التحية المباركة بأجمل منها « يا أفضل الخلق ... ألف حلاوة عليك يانبي » : ويستقبل عبد الله جزوره — بالبشاشة والترحاب . . ثم أن جزورة رغم أنه يشرب الحشيش ويلعب القمار ويسكر أحياناً وله سوابق . . وغيره وغيره .. «واخد عهد» فهو رفاعي أصيل ومن أقرب المقربين إلى الشيخ بكر . ويكاد يكون الوحيد في الحي قاطبة الذي يجرؤ على القبض على الثعابين بدون أن تدركه أصابة أو لدغة سامة من لدغاتها .

على أي حال مثل هذه الصداقات وغيرها لا يمكن أن تنقص من تدين عبد الله لدى أحد أو تنزل من قيمته . وبعد فأن الشيخ عبد الله كما يناديه بها الكل ، أصبحت أكثر من صفة ، أصبحت جزءا متمما لإسمه . لقد كان يعرف قبلا بعبد الله بن أم عبد الله .. أم الآن فهو الشيخ عبد الله .

وإذن فلا خوف ولا ملام أن يجالس جزورة ومن يشاء غيره من الصحاب الذين لا يرتاح الشيخ عبدالله إلا لأحاديثهم .. وكان جزورة يحكي له عن جلسات المساء وخسائر القمار وقعدة الإخوان وما جرى وما يجرى سافرا في ضجيج النهار . خفيا في طوايا الليل من أفعال وأعاجيب، اشترك عبدالله في أمثالها «أيام وليالى» طويلة قبل أن يصبح شيخا .. ويستمع في انصات ويضحك ويسأل ويستفسر ويضحك في شغف . كم فعل مثل ما يفعلون !! وفي مقابل ذلك يقدم لمجالسة القهوة ويدعوه للعشاء فيفتح « علبة رنجة كبيرة » ويقدم الجبنة الرومى تحية . ثم يتبع الأكلة بتعميرة ثانية على حسابه . إنما الذى كان يؤرقه في ختام

جلساته المختلفة هذه ، ما كانت تصبه فى أذنه أم عبدالله من نصائح وما توجهه له من حسرات ، وما تكيله من مطاعن ، فى هؤلاء المجرمين ويصرخ عبدالله فى وجهها عاليا ثم يأمرها أن تذهب إلى المنزل لتنام .. وأمام عصبيته وخوفا من غضبه السريع ، وحتى لا يضيق بالتجارة فيعود لماضيه ، تتحامل أم عبد الله على نفسها بالصبر والصمت .. أو تنصاع لأمره فتغادر الدكان إلى حيث تذهب لتشكو لزوجته حسنية ، وتنتهى معها دائما إلى أن « ما باليد حيلة حنعمل إيه واحنا ولايه » .

وكانت التجارة تتسع .. وفى شهر من الشهور تجمع لدى عبد الله مائة جنيها كاملة .. ولأول مرة فى حياته يشعر بقوة المال .. ولأول مرة يحرص عبد الله على أن لا يصرف من المائة جنيه مليما واحداً ..

وفى ذات مساء وكان عبد الله جالساً بباب الدكان يمر به (الدكش) أشهر جزار فى الشارع فدعاه لمجالسته .. « اتفضل يا حاج .. ياليالى النبى » ورد الحاج التحية وجلس .

وكان مساء .. إستعاد فيه « الدكش » وأعاد على مسامع عبد الله ذكرياته الحلوة المباركة لزيارة الرسول .. « عليه أفضل الصلاة وأذكى السلام » وإذا بعبدالله يندفع مقسما أن لا يمر عليه العام ، إلا وهو قد حج بيت الله .. وعاهده الحاج « الدكش » على أن يصاحبه وأن يحج معه فى نفس العام « حجة ثانية » فلقد اشتاق لمقام سيد المرسلين ونادى عبد الله بصوت سرى فى الشارع مسرى النسيم العليل « ياحبيب الله .. يانبى » .

وقد كان .. كان باقياً على الحج ، رمضان والعيد الصغير ، لا أكثر من شهرين تقريباً ، وهو يملك اليوم مائة جنيه !! وحتى حلول العيد يستطيع أن يجمع خمسين أخرى . لم يكن إذن مجرد حلم أو أمل . بل كان

حقيقة واقعة يقبض عليها عبد الله بيده فى حجم ورقتين من ذات الخمسين جنيهاً . كسبها حلالا ذلالا نتيجة الكد والمثابرة وعلى غير مائدة القمار .
وكان عبد الله قد أقلع نهائياً عن القمار، غير أنه لم يكن يشارك المتزمتين من المشايخ أقرانه فى أن لعب « اللوتارية » هو القمار بعينه . نعم كان عبد الله يلعب « اللوتارية » ويلعبها فى حذق ومهارة . فهو فى أسبوع يشترى مئات الورقات وربما مر عليه بعد ذلك أسبوعان آخران قبل أن يشترى (دفعة) ثانية . كان يلعب اللوتارية ويدفع ويشترى أوراقها (بالحداقة) ولو أنه لم يكسب ذات يوم إلا مرة واحدة . كسب ورقة شاركه فيها بالنصف (برعى) وهو بائع بطاطة وصديق قديم من الحفاة . خلان الأمس الغابر .

ومرت الأيام على جلسة عبد الله مع الدكش وحل الشهر . . شهر الصوم «والناس صيام» . . وجاء جنزوره ذات صباح مسرعا للبحث عن الشيخ عبد الله . . ولم يجده داخل الحانوت . ولم يكن داخل أى حانوت فى الشارع إطلاقا . لقد ذهب ليشترى حوائج العيد . . فقد كانت عادته أن يستبق الأعياد والمواسم ويعد لها العدة مبكراً . ومن أجل هذا كان يقبل الزبائن من الأحياء الأخرى على دكانه . . سأل جنزورة أم عبد الله عن وحيدها فقامت إليه فزعة ، وصرخت فى وجهه أن يغرب عنها وأن لا يحاول القرب من إبنها وطردته شر طردة . . لم تعد أم عبد الله تخشى شيئا قدر خشيتها من أصحاب ماضيه . . وانسحب جنزورة صامتاً . أنه يعرف غضب المرأة الكبيرة من زمن . . أنها لن تتورع عن ضربه . . وجلس على باب القهوة القريب من الحانوت ينتظر عبد الله . وكاد النهار ينصرم .. وبدأ المقرىء يتلو القرآن فى الراديو ، وبقى على الإفطار نصف

ساعة فقط وعبد الله لم يعد بعد . . أين يذهب عبد الله ؟ ! وفى هذا اليوم بالذات من أيام العمر ! ! « ياترى فين أراضيك يا عبد !!.. »

كان الكل فى إنتظار مدفع الإفطار . . سكت الراديو فى حانوت عبد الله .. وسكت كل شيء .. إلا ضربات قلب جنزورة فإنها لم تسكت ؛ بل كانت تتلاحق فى دوى ولهفة . وفجأة برزت عربة يد صغيرة من أول الشارع يدفعها (الواد حسن) وتطلع جنزورة شاخصاً بعيون قلقة . . أنه يبحث عن عبد الله . . أين ذهب عبد الله ؟! لماذا تخلف عبدالله ؟ ووصلت عربة النقل وعلى ظهرها زكيبتين كبيرتين إلى الحانوت . . كانت أم عبد الله على الباب ودار فى خاطرها نفس السؤال . لم تكن أقل لهفة من جنزورة على عبد الله . . أين ذهب عبد الله ! ! .

وخلى الشارع من المارة وانقطعت أصوات السابلة والعربات، وجلس الكل إلى موائدهم للافطار ومع ذلك لم يظهر عبد الله . . ودبت الحياة من جديد فى المكان كله . . وقام جنزورة فى قلق يتحرك مع الناس.أين يستطيع أن يجد عبدالله!! وفجأة .. عاد عبد الله. وهتف جنزورة من أعماق نفسه « عبد الله » وجرى نحو صديقه وباغته واحتضنه. وأظهر عبد الله شيء من التملل لهذا الابتذال رغم ما أحس به من حرارة جنزورة وإخلاصه . ووقف عبد الله متبلداً دهشاً لا يستطيع تعليلا لما يبديه جنزورة نحوه من مظاهر الود القديم . . قال جنزورة فى فرح « مبروك ياعبد الله ، والله تستاهل كل خير » وأبعده عبد الله عنه فى حياء. وسأله «مبروك على إيه ؟! فأجاب جنزورة «مائتين جنيه، كسبت البريمو » . وأخرج الكشف من جيبه . « فين الورقة ياعبد الله ؟؟ «أسلك الفلوس الليلة وحق الرسول » وأطلعه على كشف النمر . كانت النمرة الرابحة برقم(٢٣٥٤٠) . وأخرج عبدالله الحفظة الكبيرة فى سرعة يبحث عن الورقة ، ولمست أصابعه أول ما لمست الورقتان الكبيرتان من

ذوات الخمسين جنيها . . ثم تحسس مرة أخرى فعثرت أصابعه على الخ
الجديد .. « وبعدين » والتفت إليه جنزورة فى جزع .. « أوعى تكون
ضاعت » .. لا ..أنها موجودة .. لا يمكن أن تضيع .: وبحث ثانية ..
وأصابعه ترتعش إرتعاش شفايف جنزورة « فين الورقة » ومرت دقيقة
ولكنها مرت وكأنها ساعات بل أحقاب . . وأخيراً ..وفى لحظة خاطفة
طوى عبد الله المحفظة ووضعها فى جيب صديريه وطار من على الأرض
نحو « بقالته » وخلفه جنزورة يلهث واقتحم الحانوت . . وكانت أم
عبد الله لا تزال قابعة فى داخله تتناول طعام إفطارها . . فقامت لتوها
« مالك يابنى » ونهرها عبدالله، وطلب إليها أن تجلس لتأ كل فجلست .
وفتح عبد الله الدرج ، والتفت إلى خارج الشارع . ثم دس أصابعه تحت
« الجرنال » الذى فى قاعة ، وأخرج الورقة ونشرها « فى يده » .. وهنا
لم يتمالك جنزورة نفسه فصفق عالياً وانطلق يستحث أم عبد الله أن
تزغرد : . ونظرت أم عبد الله إلى ولدها ، ولمحت فى عيونه الفرح وفى
يده الورقة ولم تكن تعلم عن موضوعها شيئاً ، وزغردت وزغردت وزغردت .
وعبد الله يحرك الورقة بين يديه يميناً وشمالا . ويدور بها على أرجاء
المحل فيمليس على البضاعة والادراج والأرفف وكأنه يباركها .

وتزاحم الناس أمام الحانوت.. كل يسأل.. وما من مجيب . . ومع
ذلك فإن سيل الزبائن والتجار والباعة وغيرهم وغيرهم . . تقدموا نحو
عبد الله « مبروك يا ابنى . . مبروك ياخويا . . مبروك ياعم » كانت
تحيته التهانى من كل فم . وجنزوره لا ينى يردد « ألف مبروك يا عبد ..
ألف ألف مبروك » . أما عبد الله فإنه لم يكف دقيقة عن التلويح بالورقة
يحركها يمينا وشمالا أمام الأنظار وهو ينادى بملء فمه وبأعلى صوته
« بركاتك يا مصطفى . ناديتنى يارسول الله .. لبيك .. لبيك .. هنيالك
يا موعود » وخرج عبد الله إلى الباب، وطلب إلى الناس أن يتراجعوا

قليلا وأفسح أمام الباب فراغا ، ووقف فى وسطه وفى يديه بعض الدراهم نثرها على رؤوس الجميع وهو يصرخ « حبا فى الرسول » ثم استدار يمينا وهو يصفق، وعاد فاستدار شمالا وهو يصفق ، ووسطه الأعلى يهتز وكأنه فى حلقة من حلقات الذكر وأخذ يردد « جيت يا نبى . . جيت . . وفى مقامك . . صليت » وكان جنزوره رفاعى من أساطين أهل الذكر . . فلم يتوانى عن مشاركته . . كان عبد الله يبدأ . . . « يانبى . . وجنزوره يجيبه جيت» ويردد عبدالله ثانية «وفى مقامك» فيجيب جنزوره أيضا «صليت».
والناس تتجمع والشارع يزدحم حتى أوقفت حركة المرور إيقافا تاما . . وجاء العسكرى ففرق الجميع وأمر عبد الله بأن يكف عن أفعاله هذه ويدخل المحل . . وكاد عبد الله يشتبك معه لولا أن جنزوره دفعه فى لباقة إلى الرضوخ . . وانصرف الناس وعاد الحال إلى طبيعته وعبد الله لازال ممسكا بالورقة يطوح بها يمينا وشمالا فى حركة آلية صرفة وكأنه لا يستطيع إيقافها . . وطلب إليه جنزورة أن يطلعه على النمرة ولكن دون جدوى ، فقد كان من المحال أن يكف عن التلويح بها . . وأخيرا وبعد جهد سكن عبد الله ، وحاول جنزوره أن يأخذ منـــه الورقة (للكشف عنها) ولكنه رفض أن يتركها من يده . . . وتطلع جنزوره إلى كشف النمر الرابحة ، وعاد يتطلع إلى نمرة الورقة فى يد عبدالله . واهتزت أوصال جنزوره.
وكاد يقع على الأرض مغشيا عليه . قال عبدالله فى وجل . جرى إيه !! فأجابه جنزوره وهو يبلع ريقه الجاف فى صعوبة « شوف غيرها » .
واستدار عبد الله فى جنون نحو الأدراج والأرفف يقتلع كل شىء أمامه. باحثا منقبا عن الورقة الرابحة «الورقة ياعالم » فين الورقة ياوليه!! ونظر إلى أمه . وسكتت أم عبد الله . وأفصحت عيونها الواجمة الضارعة عن المأساة . وفهم عبدالله من نظرات أمه كل شىء . ولكنه لم يصدق وما كان فى الإمكان أن يصدق ما جال بخاطره . فين الورقة !! انطق يا وليه!!

فين الورقة !؟.. وأجابته أمه صارخة قطعتها كفاية قار حرام عليك. وتلفت عبد الله حوله باحثا عن شيء. ووقعت يده على قطعة سميكة من الخشب وانهال بها على رأس أمه فى جنون حتى سقطت على الأرض. ولقد حاول جنزوره أن يمنع عبد الله ولكن بعد فوات الوقت. ماتت أم عبد الله وكانت ضعيفة القلب فلم تحتمل.

وبعد شهور: قدم عبد الله إلى المحاكمة بتهمة قتل أمه. وانصرمت أعوام قضاها عبد الله فى (الخانكة) ثم خرج بعد أن ثبت الأطباء من هدوئه وطاعته، أن لوثته لم تكن من النوع الحاد الخطير وعاد إلى الحانوت محطم القلب كسير الفؤاد ذليل النفس فوجد زوجته تقوم على تجارته.. ولم يكن الحانوت كسابق العهد غاصا بالبضائع، ولكنه كان حانوتا على كل حال..

وأنت إذا مررت اليوم لرأيت عبد الله جالسا على باب الحانوت صامتا فى بله وشرود، لا يكاد يحس بوجود أحد، وعلى رأسه عمامة خضراء وفى يده مسبحة طويلة.. فإذا أطلت وقفتك، كما فعلت أنا، أو جلست على القهوة المقابلة للحانوت.. كما تعود أن يجلس جنزوره لسمعت عبد الله بين ساعة وأخرى من ساعات النهار، يردد فى ألم ظاهر وحسرة بالغة دعوته الخالدة «يا نبى يا حبيب الله.. الصبر طيب.. الصبر جميل»

ويمر الناس على الحانوت فيهز كل منهم رأسه مشفقاً حزيناً. فاذا رفعت أنت رأسك إلى أعلى لأدركت توا سر إشفاقهم إذ تقرأ على اللوحة المعلقة فوق رأس عبد الله العبارة التالية..

«الفقير عبد الله المعتمد على الله»

انتهت

الحجز الكبير



لم ألمح وجه الشاويش لبيب حين أودعته ساعتي وربطه عنق ليقيدها في الامانات إلى جانب اسمي . ذلك أنه لم يرفع رأسه وهو يصرخ في الحارس ليضعني داخل « الحجز » .. وكان الحارس لبقا فلم يدفعني أمامه كما تعود أن يدفع غيري من المجرمين ، ولكنه تركني لأقوده إلى حيث كان يقف زميل آخر له ، أمام باب خشبي مقفل ، لحجرة ظلماء معتمة تحوى من مخلوقات الله .. سبعة عشر انسانا .. مواطنا مصريا ..

وسلمني حارسي الى زميله فاهتزت المفاتيح في يده ، وصرخ في الواقفين وراء الباب أن يتراجعوا .. فتراجعوا .. ثم فتح الباب في صرير حزين وتقهقر إلى الوراء في خطوة منتظمة ليفسح الطريق « للأفندي الجديد » وحاول بعضهم أن يخرج فدفعه بلكمة .. وأقفل ورائي الباب . .

ومرت دقائق استطعت بعدها أن أتبين معالم الحجرة من بين فرجات الوجوه المحدقة في وجهي ..

كنا في الظهيرة . ظهيرة الصيف . وكان الظلام يملأ جنبات « الحجز » إلا من بضع قطرات الضوء ، تساقط على ركن قصي يقع تحت مسقط نافذة محلاة بالسلك الدقيق العيون .. ومن الخارج طرق أذني صوت الشاويش محمد ينادي حارس الحجز .

— نمرة كام ياسيدى عندك .

قالها فى ملال برما بالحجز ومن بداخله . . . ورد عليه الحارس .

— « تمنتاشر »

وعاد السكون من جديد ... لكن الوجوه السبعة عشر كانت لاتزال تحملق فى وجهى وتقلب النظر فى بقيتى . . فى حذائى اللامع . . وقميصى الحريرى . . وبذلتى أو بدلتى البيضاء وغيرها . . وغيرها . . ولم أكن والحق يقال منفرداً وحيداً فى ردائى بين الثمانية عشر إنساناً الذين أصبحت تضمهم الحجرة ، بل كان هناك من الأفندية غيرى عدد لايستهان به، ولكنهم كانوا قدامى « سوابق» وآخرهم، أدخل الحجز من أمس الأول . . . قال واحد منهم وكان اسمه بيومى على ما أذكر .

— « معاك سجاير ؟ »

فتطلعت إلى وجهه . كان شريرا لاشك، إذ لم أكد أتحول بعينى عن فمه الغاضب، حتى لمحت رأساً يهزها صاحبها محذرا داعياً أن أجيبه بالنفى . ولما كان لى خبرة بمثل هذه المواقف، فقد تحولت إليه ببصرى فى تحد ظاهر فأجفل . والحق أنى كنت أنوى إعطاءه سيجارة لولا أن تلفظ آخر يقف جانبى .

— الشاويش أخد من الأفندى العلبة .. أمانات .

وعند ذلك أنفرط عقد الأبصار . وانصرف عشرة منهم على الأقل كل إلى ما كان عليه قبل دخولى .

واستدار بيومى وتوجه إلى حيث كان يجلس قبلا بجوار الحائط تحت النافذة . أما أنا فقد أخرجت علبة سجائرى وتناولت منها واحدة

طوحت بها فى الهواء فوقعت عند قدمه الأيمن . وفتحت العلبة عن آخرها وتقدمت إلى كل منهم بواحدة ، وكأننا فى صالون من تلك الصالونات الأدبية الرفيعة التى تعودت قضاء أغلب ليالى بين أهلها . ورفض بعضهم ، وأخذ بعضهم ، ولم يبق فى العلبة بعد ذلك شيء .

ونظرت إلى بيومى فإذا به لا يدخن .. أين إذن السجارة التى . . آه .. وتذكرت أنى رميت له بسيجارة فى غير أدب أو انصاف مع أنى قدمت للجميع علبتى مفتوحة ، بطريقة مهذبة أرفع قطعا من مستوى « الحجز » وكان لا بد من تدارك هذا الخطأ ، فسرت نحو بيومى وكان يرقبنى فى غير مقت ..

— عاوز إيه يا أفندى ؟ !

ولم يكن غاضباً أبداً . وأخرجت العلبة وانحنيت نحوه بواحدة فى أدب جم كما فعلت مع الآخرين ، فهب واقفاً ، واستقبلنى فى منتصف الانحناءة وهو يخرج سجارتى الأولى من جيب صغير ويرفع يده بالتحية شاكراً .

— كتر خيرك يا أستاذ .

ثم ربت على كتفى فى خجل وامتنان . ولم أحاول أن أسأله لماذا لم يدخنها ولماذا احتفظ بها فى جيبه فقد اغنانى سجين آخر محجوز مثلنا فأخذها من يده وقدم له عوضاً عنها نصف رغيف وبداخله قطعة من « الحلاوة الطحينية » ..

وإذن فلم يكن صاحبنا يدخن . . بل كان هذا هو أسلوبه المبتكر وكانت تلك هى طريقته القويمة فى جس نبض القادمين الجدد .

وقد لمست ذلك وأعجبت به أكثر من مرة فى مدى الأيام الثلاثة التى أمضيتها معه بعد ذلك اليوم فى « حجز واحد » .

وعدت إلى حيث كنت أقف قبلا . كانت الحجرة ضيقة كما بدا لى بعدذلك ، ولا يمكن أن تتسع لأكثر من سبعة أطفال ، لا ثمانيةعشر رجلا كل منهم يعول عائلة بأسرها . ولكننى لم أفكر فى الأمر ساعتئذ، فلم أكن أظن إطلاقا أنى سأبقى أكثر من ساعات معدودات بعد أن أطلقت النيابة سراحى .

وكان يقف بجوارى رجل ضخم، أشعث الشعر يتأفف بين دقيقة وأخرى من الغرفة تأففا واضحا ، وهو ينفث بقيه من الدخان ويتمتم مستمطرا اللعنات على من تسبب فى إيداعه هذا المكان . ويتلفت نحوى حزينا آسفاً فى أشفاق . قلت فى صوت خافت . « حكايتك إيه ؟ » .

فجذبنى الرجل من ذراعى إلى الخلف واستندنا معاً بظهرينا على باب الحجز ووليناً وجهينا شطر الآدميين الآخر . . وكانت الغرفة غاصة بهم تماما ، ومد يده لى ببقية السيجارة التى كان يدخنها ولكنى أخرجت علبتى فنهانى ونصحنى أن أبقيها للمستقبل وأخذ يسرد على قصته .

إنه ترزى ، اشترى منذ أربعة أيام سكينا ذات حدين من أحد الباعة السريحة (لقطة من مخلفات الجيش) ليحوله إلى مقص ، وصادف فى هذا اليوم بالذات ، أن قام البوليس بحملة تفتيشية بمناسبة مرور « مولانا » وكان البوليس يبحث عن أسلحة، فعثروا على السكين عنده ، وساقوه إلى الحجز بتهمة إحراز سلاح أبيض ذى حدين «طبق الأوامر العسكرية الصادرة» وقد مضى عليه أربعة أيام لم توجه إليه تهمة ولم يحقق معه ولا شىء من هذا اطلاقاً اللهم إلا مجرد محضر حرره له «كونستابل» . . وشهق الرجل . . «يبقى ده ظلم ولا مش ظلم !!»

وما كان فى مقدورى الإجابة .. ومن الذى كان يستطيع أن يفرق

بين الظلم وبين العدل فى مثل هذه الأيام . قلت . « الله أعلم ! »

فهز الرجل رأسه مستنكراً . . مستنكراً الظلم طبعا .. وقال فى عزاء جميل .. .

« إن الله على كل شيء قدير . » فأجبته فى صمت :

« أى نعم .. وهو أرحم الراحمين . »

ومالبث أن هدأت ثورته ..

وجاءت امرأة تنادى من خلف النافذة السلكية فى على « الحجز » كانت تنادى على زكى . وهب أحدهم واقفا والآخر الذى كان يجلس بجوارى يسألها فى صوت عال .

ـــ « معا كى إيه ياخاله ؟ » .. قالت المرأة فى صوت أجش خفيض .

ـــ « علبة هليود وجبنة وحلاوة » ولما صرخ فيها زكى أن ترفع صوتها .. قلبت الآية عالياً .. « حلاوة وجبنة وعلبة هليود» . . وأمرها زكى أن تنتظر .

لم أرى بدقة ملامح هذا «الذكى» ولكنه كان يرتدى قميصاً أفرنجيا وبنطلونا أصفراً .. شاهدته بهذا الزى ولصق بذاكرتى لأنه كان يقف فى مقدمة الحلقة والحارس يدخلنى إليهم .. وقال أحدهم .. .

ـــ هات البضاعة يابيومى .

فوقف رجلان بجوار الحائط ، وصعد بيومى على كتفيهما ، وناوله أحدهم حبلا رفيعا ودلاه من النافذة ، ربطت فيه المرأة البضاعة من الخارج فجذبها بيومى من قطع فى سلك النافذة ، ورمى بما فى الحبل داخل الحجرة فوقعت «علبة الهليود» فى ناحية ، وأنفرطت الحلاوة فى ناحية وتناثرت الجبنة

وقتا . ونزل بيومى فقالت المرأة من الخارج ..

— عاوز حاجة كمان يازكى ؟!! ... فأجابها سى زكى ..

— فين العيش .. هاتى كمان علبتين وكبريت ياأمه .. هاتيهم من السنى وخيم الصمت . ولو أن بعضهم كان يجمع المتناثرات فى حركة خفيفة ... وقالت المرأة ..

— مفيش فلوس .. السنى بطل يدينا شكك .. وانته عارف يازكى وكان الشجار يدور فى أحد الأركان من أجل الحلاوة ، فطالبهم زكى بالصمت ولعنهم بيومى على جشعهم .. قال زكى ..

— طب روحى انتى ياأمه !! فاستفسرت أم زكى ..

— « أفوت على البيه ! ؟ ... قال وحيدها ..

— أيوه .. أمال .. وخليه يجى الصبح يقابل النيابة أو يبعت محامى

ونظر إلينا فى اعتداد وهو يلعن الذقون وأصحابها حانقاً على السنى

وكان يوجد من الخبز ما يكفى الجياع .. ولكن الحلاوة والجبنة كانت أشد ندرة من عود ثقاب لمدخن فى فمه سيجارة يريد أن يشعلها ..

وقد أكل من أراد أن يأكل وقدم لى زكى سيجارة من « الهليود » فشكرته

— « عيب يا أستاذ . . من بعض خيرك .. . »

وقامت بيننا ألفة غريبة كألفة المسافرين فى عربة واحدة .. وكنت قد أخذت مكانا للجلوس قريب من الباب على ورقة من جريدة قديمة قدمها لى زميل « محجوز » وجلس زكى بجوارى على الأرض . .. أنه سواق « فلان بك » من سبع سنين . وقص على حادثه .. كان البيه فى العزبة وكانت الهانم فى القاهرة وكان هو مع الهانم ، وفجأة طلبت إليه الهانم أن يذهب بالعربة لإحضار البيه من العزبة . وكان ذلك فى الحادية عشرة مساءاً ، وهو يقود السيارة مسرعا ، فصدم فلاحا وزوجته فى الطريق

الزراعى . وليس يعرف أمات الرجل أم لازال حياً . حققوا معه وأحالوه على النيابة فامرت النيابة بحبسه أربعة أيام . . غدا ثانى يوم ولكن يظهر أن البيه لازال فى العزبة، لأنه لو كان قد عاد، لأخرجه من الحجز قطعاً .

ـــ وكان الست كانت تخرجنى .. تقدر قوى .. لكن الست بمزاج .. يصح تكون انشغلت . . أصلها بقى على كيفها . . يعنى .!

وأشار بيده ليطمئن على أنى فاهم ماذا يعنى «بيعنى» وكنت فاهم، ولكن فى حاجة إلى المزيد . .

ـــ الست !! ياسلام الست . العزبة بتاعتها . . والفيلا بتاعتها . والعربية والبيه نفسه .. كل حاجة بتاعتها .. بنت باشا ياعم .. . أبوها كان وزير .!!

وأنهالت الضربات على باب الحجز لنتراجع وانفتح الباب فرمى إلينا الحارس بشخص جديد . وكان الشجاويش لبيب هو الذى يتكلم وأمامه دفتر الأحوال .

ـــ « يبقى كام عندك ؟ » . . . فرد الحارس ..

ـــ « ١٩ يافندم » . . . فأجابه .. .

ـــ « تمام . . خرج الأفندية طابور » ..

وخرجنا طابور . كنا خمسة أفندية . أربعة والترزى . وكان الجو صحوا والشمس تغرب وقد أقبل الليل .. واستبقانى الشجاويش لبيب بجانبه وأمر عسكريا أن يصحبنى إلى حجرة المأمور . . ولم أعد ثانية إلى «الحجز» وتقرر أن أمضى ليلتى مع بعض الأفندية الآخرين، فى حجرة من حجرات الكتبة «بالقسم» . وفى أول الأمر جلست فى الحجرة وحدى

بعد أن أوصد بابها . ثم جاءونى بأحد الطلبة ليشاركنى المبيت فيها . .
وكانت الحجرة واسعة تحتوى على دولاب كبير وعدة مكاتب صغيرة
ومنضدة مستطيلة ، وأربع كراسى وبها نافذتان تطلان على حارة
خلف القسم ، وكان الطالب متهما بمشاجرة لا « بالسياسة » كما
توهمت بادىء الأمر، إذ إعتدى على حانوت صائغ وحطمه لأنه على
حد قوله «خد الساعة يصلحها شال العدة القديمة وركب لها عدة ثانية
فالصو » . !!

كان ضخم الجسم، غبياً ولا زال فى الثانية الثانوية رغم أنه جاوز
العشرين . وتعطى بعد أن عرف سبب وجودى قائلا . .
— « ودى بلد تستاهل الواحد يتحبس علشانها . . دا شعب جاهل
ياعم . . دا شعب ظلط . واخد على الذل . !!

وتمددت بذلتى فوق المنضدة الكبيرة ، ونام هو فوق المكاتب .
وجاء الجندى المنوط بالحراسة ، فأخبرنا بأنه سيطفىء النور وكان النور
يضاء من خارج الحجرة . . وخيم الظلام فكان صاحبى يحدثنى عن معاركه
وبطولاته وأنا غارق فى أفكار بعيدة منصرف عنه إلى حالى وأهلى
ومصيرى . . كنت فى حاجة إلى أن أخلو لنفسى، فلماذا لا يصمت هذا
الغبى . !! ومرت ساعة تقريباً قبل أن يتردد فى الحجرة صوت شخيره
المزعج . .

* * *

كانت المنضدة بجوار النافذة والهواء يهب عليلا رطبا ، وأنا فى
حالة من التنبه العقلى والتعب الجسمانى لا تساعد على النوم . . وحمل
إلى النسيم صوت صفير ضعيف هادىء.فتقدمت برأسى نحو النافذة . من

الذى يصفر ! وفى هذه الساعة من الليل ! وفى هذا المكان من العالم !
وسكت الصفير فأطلت رأس من نافذة المنزل المقابل . أنها رأس إمرأة
وتراجعت مختفيا وأذنى ترقب . .

ـ عزيزة . أسمعى . بت ياعزيزة . .

ـ عاوز إيه ياعم لبيب . ؟

ـ جوزك ميت بره الليله .

ـ عارفه

ـ عارفه منين !!

ـ مش رميته فى الحجز

ـ معاكى حد !

ـ أبدا . . لوحدى .

ـ أطلع ولا أمشى ؟ هه . . أنا جايبلك حاجه حلوه . . أطلع !

ـ على كيفك انت ومزاجك . . وإذا جيت تخرج بدرى

ـ طيب . . افتحى . . أخرج بدرى قوى

وخرج الشاويش لبيب مع طلوع الشمس . أما أنا فلم يحفل لى جفن
طوال الليل

وفى الصباح لم أحس التعب . كان عقلى يقظا متنبها وعدت إلى الحجرة
أوفر نشاطا وأكثر حيوية من الأمس!!!

وبدأ النهار الثانى فى ظلام الحجز الدامس بأخراج مالا يقل عن
عشرة من أهله، بعضهم لاستكمال التحقيق كل فى جريمته التى نص عليها
والبعض إفراج، والبعض الثالث للمحاكمة رأسا، وبقى عدد قليل ، أعرف
منهم خمسة على التحديد الطلبة الأربعة والترزى أما الباقون فلابد أن
يكون منهم بعل عزيزة ، فإذا أخرجنا بيومى . ثم أخرجنا سائق الهانم

بنت الباشا الوزير . . آه هذا هو زوجها . . هذا الإنسان النائم فى زاوية الحجرة أما الثانى فلا يمكن أن يكون متزوجاً .

بل لا يمكن أن يكون مسؤولا عن نفسه .. كان يجب أن يكون فى ملجأ لا فى « حجز » وصحت فراستي .. أنه متسول . . من يكون وماذا يكون اذن زوج عزيزة ؟!. أجابنى بيومى .

ــ داود قهوجى كان بيشتغل عندهم هنا فى بوفيه القسم . وبعدين .. إن الله يأمر بالستر ... متجوز بنت حلوه . قصده ... » .

وكان يريد الاسترسال فقاطعته قبل أن يتم سائلا عن سر حجزه ومكانه . .

ــ « مشاكس يا بيه .. أسأل عنه الشاويش لبيب »

ولم يكن بيومى يتهكم أو يسخر بل كان يتكلم بلهجة جدية صارخة ..

* * *

ويظهر أن هـذا التودد الذى أبداه بيومى نحوى لم يعجب التزى لمجاورنى سريعاً .

ــ « خد بالك من الواد بيومى ... معاك فلوس ؟؟ »

فلوس !! نعم . كان معى جنيهان أو أكثر لست أذكر . قلت ..

ــ « معايا .. يلزم حاجة ؟ ! » قال الرجل . .

ــ « وليه بس . . كان لازم تسلمهم للعسكرى ويقيدهم قدامك . .

مؤكد الواد بيومى خد أشارة عنك » .

كان حديثاً غريباً فعلا، فلم أدرك مغزاه ولم ألح فى طلب الشرح إذ كان باب الحجز قد فتح على مصراعيه ودفع الحارس « بمحجوز » آخر هو جندى مسرح من جنود الجيش ترك الخدمة منذ أسبوع ، وقد

قبض عليه للتحرى وهو يجهز على مكافأة الخدمة فى نعيم القاهرة قبل أن يعود إلى الجحيم ليعمل فى الحقل حافياً عارياً جائعاً كما كان يعيش قبلا . وكان الجندى قد مر على الشاويش لبيب بدوره . ومن احتكاكات الترزى بالزائر الجديد حتى منتصف النهار تقريبا جاءنى يقول ..

— « معاه فلوس زيك . حيطيره . ماتخافش على روحك دلوقت فلوسك فين ؟ ؟

قلت فى همس وكان الجو يوحى بالكتمان ونظره الترزى وريبته تخيف أشجع الأثرياء .

— « فى نعل الجزمة زى ماقلت » فأغتبط الترزى . .

— كويس كده . . الدفعة خايب ويظهر معاه قرشين كويسين . الإشارة كانت جامدة » .

ولكن مامعنى هذا كله ! !

نحن محجوزون على ذمة التحقيق فى اتهامات مختلفة ولا يعلم إلا الله متى سنخرج وكيف سنخرج . فهل كانت تنقصنا التسلية ؟ ! إن مايسر إلى به الترزى فى ريبته هذه . وما ألمسه من حركات بيومى وأفاعيله، يوحى بأن وراء الأكمة ماوراءها كما يقول الفصحاء ..

الكل جلوس الآن على الأرض وقد تمدد بيومى إلى جانب « الدفعة » وتجمعوا حوله وهو يقص عليهم كيف انتهى به الحال إلى هذا المآل .. كنت أتثاءب وبدأت أحس بحاجتى إلى الراحة ، وانتابنى هم طارىء .. ترى ماذا يفعل أهلى الآن ! !

وجاءنى الجواب السريع الذى أخرجنى من أوهامى المتلاحقة فوقع

على كتفى حذاء « الدفعة » الثقيل .. وافقت من أوهامى .. ما الذى حدث بالضبط ؟ ! قال الترزى وهو يبتعد بى إلى ركن الحجرة .

— « بيومى هزر مع الدفعة والهزار قلب جد . طريقته كده .. أتفرج بقى على اللى حيحصل قدام عنيك .. »

ووقفنا نرقب أهل الخير ، وهم يعيدون المياه إلى مجاريها بين الاثنين وتقدم أحد الطلبة فسحب « الدفعة » من يده وأحضره إلينا أنا والترزى ليبعده عن شر بيومى ، وكان « الدفعة » مغيظاً محنقاً يقسم أنهم لو تركوه على بيومى لافترسه . ولكنهم لم يتركوه .. هذا المجرم الشرير « الحاقى » .. وكان بيومى يدس بابه من طرف الحجز بأفزع منه ويحاول الافلات ليتابع العراك .

— « سيبونى أوريه .. أنا حاقى يادفعة .. سيبونى بس .. أطلع العدس على عنيه » .

ولم يتركوه طبعاً . وأسكتنا نحن الدفعة وصبرناه .

— « ماله العدس .. أشرف منك . خدمة الوطن .. وأنت تطول تدخل الجيش . مش أحسن م الصياعة .. واشرف .. يامجرم .. »

وفى النهاية استطعنا اسكاتهما . ..

وجلسنا جميعا فى صمت نرقب مرور النهار من ذلك القبو القذر .

كان الترزى يتلوى بجوارى يكاد يقتله الغضب .. وظل كذلك طويلا . وحينما جلسنا للطعام امتنع عن تناول شىء .. أنه سينفجر .. وانفجر ولكن انفجاره كان فى بادىء الأمر هادئاً .. قال ..

— بقى اسمع .. دا رابع يوم والواد بيومى يعملها .. أنا خلاص وقام يغير مكانه وقد رأى منى اعراضاً عن كل مايجرى حولى .

وجلس إلى جوار « الدفعة » يسر إليه فى ريبته المعهودة ببعض ما يروم . ورأيت الدفعة توا يتحسس طيات ثيابه . وأخرج من جيب فى سرواله بعض الجنيهات وراح يعدها فى دقة والترزى يتابعه فاحصاً .

وصرخ الدفعة ..

— « ياخرابى .. ناقص ثلاثة جنيه .. راحوا فين .. ثلاثة جنيه. كان معايا سبعة » .

ونظرت إلى بيومى فاذا هو يحاول الأغضاء عن هذا التزمر ، وكأنه لايعنيه من الأمر شيئا . وسألت الترزى عن جلية الأمر فلم أحظ منه بجواب بل رأيته يقف بغتة فى وسط الغرفة ويشير إلى بيومى فى غضب ظاهر .

— « طلع الفلوس ياحرامى يالص .. يامتشرد .. الواد ده حرامى .. والشاويش لبيب بيدخله « الحجز » علشان يسرقنا .. أنا فهمتكم يامجرمين ..

وما كان من المنتظر طبعا أن يصمت بيومى عن مثل هذه الإهانة الساذجة ..

— « أخرص .. أنا أنادى الشاويش .. ياشاويش .. ياشاويش لبيب » ..

وهجم على الترزى يشبعه لكما فاحطنا به . كنا كلنا نضربه وهو يصرخ ويستغيث . وجاء العسكرى ففتح الباب وأطل فرآنا مجتمعين عليه فلم يجسر على الدخول . واستدعى الشاويش لبيب سريعا .. على أن أحداً منا لم يتوقف عن ركله وضربه سواى إذا نظرت إلى الشاويش لبيب وهو يطل على هذا المشهد الفذ بعينيه الحالمة النظرات ووجهه المترهل مبتسما وكأنه يتهكم منا .. وكان بيومى يصرخ ..

ـــ الحقنى ياشاويش .. موتونى .. ألحقنى يابوليس .. ياحكومة ألحقونى ياعالم .. » .

وتوقعت فى بادىء الأمر ، أن الشاويش لبيب سيتقدم لإنقاذه وانتظرت أن يصيبنا برشاش من سلطته العارمة . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بل كان صاحبنا يبتسم بسمة خبيثة ماكرة ، فلما سمع استغاثات بيومى تجهم غاضبا ودفع حارس الحجز وجندى آخر إلى الداخل ..

ـــ « هاتو الواد المجرم ده .. ياحرامى يالص يا ابن . . هاتوه .!!

وظل يلعن بيومى ويسبه بأخش العبارات حتى أخرجوه بمزقا هامدا من بين أيدينا . وحاول حارس الحجز أن يقفل علينا الباب ولكن التراب كان يملأ جنبات المكان، ونحن نعطس وفى حاجة إلى الهواء فاندفعنا خلفه إلى الخارج وكان الجاويش لبيب يهم بالجلوس إلى منضدته حينما رآنا خارج الحجز .

ـــ « جرى إية ياجماعه .. يا عسكرى .. حوش المساجين دخلهم جوه .. أديني الواد ده .. »

وجرجر إليه بيومى، بينما العسكرى الحارس ومساعده وآخر يدفعوننا للعودة إلى الداخل، فى غشوم العتاه . وما كان فى الإمكان أن يستجيبوا لاحتجاجنا . وكنا نعطس وأرض الموقعة تعج بالغبار .. وأى غبار!!. وظللنا نعطس بقية اليوم على ما أذكر .

ولم يهدأ التزى فأطل من كوه باب الحجز، وأخذ ينادى بصوته مجلجل .

ـــ « افتح الباب أنته وهوه .. افتح ياعسكرى .. ودونى للمامور..

عاوز المأمور ،... اوستمر الترزى يصرخ وينادى حتى أشرفت الشمس على المغيب،وبدأ الليل يرخى سدوله، وكلنا جالس هامد يحاول أن يستجمع قواه ويلم شتات فكره .. ولم يهدأ الترزى بل كان يستريح دقائق ثم سرعان مايهب ثانيه إلى كوة الباب، ويصرخ طالباً المأمور أو المعاون أو الضابط دون جدوى ..

ومع ذلك فقد استطاع أن يحدث فى القسم ضجة غير عادية ، خاصة عند الغروب. وطوابير الليل من العساكر تتهيأ للدوريات .. وبين حين وآخر كان يكشف لنا عن الحقيقة فى شرح متقطع :.

«يدخل المحجوز منا بأمر النيابة أو البوليس فإذا كانت تبدو عليه مظاهر الثراء نصحه العسكرى المنوط بحراسته إلى الحجز، أن يحتفظ بنقوده معه ، ولا يعطيها للأمانات إذ ربما طال حجزه وتغير الشاويش المستلم فتضيع عليه نقوده . . فاذا كان عديم الخبرة عديم الثقة فى حفظه الأمين « والأمانات »، صدق القول وتقدم إلى الشاويش لبيب الذى يتحاشى بدوره الأصرار على سؤاله عما يحمل من نقود ويكتفى بأخذ بقية مافى جيوبه يقيدها باسمـــه . . وهكذا يدخل الحجز وهم على علم بما معه من غنيمة سهلة . ويخطر الحارس بأنه يحمل نقوداً، فيخطر هذا بيومى الذى يتكفل بنشلها منه داخل الحجز ، فاذا اشتكى أو تزمر أخرجوا بيومى من وسط المحجوزين، بعد أن يكون قد حصل على مأربه وأعطى ما أخذ للشاويش لبيب مقابل نسبة معينة . ولا يعود بيومى إلى الحجز فى ذلك اليوم حتى تهدأ العاصفة . .

على أنه ما كان من المتوقع هذه المرة أن تهدأ عاصفة الترزى أبداً . واضطر الضابط أخيراً أن يتنازل ويحضر الحجز . وكان يريد أن يحقق

الأمر سريعاً ويزيل الشكوى ويعود إلى عمله كالمعتاد ؛ ولهذا أنصت إلى الدفعة « المسروق » ثم أنصت إلى الترزى فى غير اهتمام تقريبا . وانصرف مطيبا خاطرهما .

.. صخب متصل .. وضجيج عال وأنهلنا على الباب نطرق ونطرق إلى أن حضر المأمور . كان الضابط قد أخبره أننا لن نهدأ وأننا نتهم العساكر بالسرقة . وفى حجرة المأمور أنبرى الترزى يشرح ما شاهده أربع أيام متتالية. وكان المأمور معقولا ، فاستدعى الشاويش لبيب ولكنهم لم يجدوه . انتهت ساعات عمله وانصرف . وكذلك لم يجدوا بيومى إذ لم يكن اسمه مقيداً فى سجل المحجوزين . وشهد العساكر جميعهم طبعاً ، بأمانة الشويش لبيب ، وأقروا بوجود بيومى ، الذى قالوا عنه أنه أودع الحجز لساعات معدودات بغية أرهابه وكان قد أهان « البلكامين » سعيد ..

ووعدنا المأمور أنه سيحقق بالأمر وسيستدعينا لاستكمال التحرى. وأمر الضابط باستجواب الشاويش لبيب بمجرد استلامه العمل فى الصباح . وأمضينا الليلة وكل منا يفكر فيما سيقوله وفيما سيحدث فى الصباح . ونسينا أو على الأقل نسيت أنا وحـــدى ماذا سيكون من أمرى .

وجاء الصباح وأنا أتحرق شوقاً إلى ما سيحدث ، فلم يحدث شىء إطلاقاً . كانت نوبه الضابط تنتهى فى الساعة الثامنة وقد أنصرف . وحضر المأمور مبكراً لكنه قام مع النيابة فى حادث غير عادى . وأخرجونا إلى الطابور ثم أعادونا إلى الحجز من جديد كما فعلوا بالأمس . ومررنا على الشاويش لبيب مرور الكرام ؛ فقيد أسمائنا فى بساطه وكان رده الوحيد على الترزى وهو يتوعده أن هز رأسه فى سذاجه . . » .

— « الله يسامحك يا عم . ما هو الطيب أخرته . كده » .

وانصرم صباحنا الثالث فى الحجز كما انصرم سابقه . وعند الظهر تماما أطلق سراح زكى سائق الهانم بنت الباشا . ونقل الطلبة الأربعة إلى السجن العمومى . وبقيت أنا والترزى . أما « الدفعة » فقد رحلوه خطأ إلى إدارة الجيش . وجاء العسكرى حارس الحجز والشمس تغرب فاستدعانى ..

— « خلاص يا أفندى . النيابة أفرجت عنك »

وابتسمت لجهله وسذاجته أيضاً .

ومع هذا فانه لايمكن أن يرمى القول جزافاً .

قال الترزى بعد أن عدت إليهم ..

— « لازم سمع حاجة . . لادخان بلا نار . . ضرورى يخرجوك أقعد يا إبنى دلوقت تعرف . . . »

وجلسنا على أرض الحجرة وتقدم أكثر من خمسة أشخاص، يرجون أن أمر على دار كل منهم فى طلب طعام أو نقود . . أما الترزى فقد ربت على كتفى .

— « اسمع يا ابنى . ربنا بيحبك اللى نفدت من إيدين المجرمين دول . . أنا زى أبوك . . أنا عارف أنك مظلوم وأنا مظلوم وكلنا مظلومين . لكن حنعمل إيه . . »

وما كنت فى حاجة إلى مثل هذا العزاء . . ولكنى أجبته بنفس منطقه

— صدقت . . حنعمل إيه . . وعلى رأى المثل . . المســـاواة فى الظلم عدل ؟؟

ونظر إلى الرجل معجبا . . والتفت إلى الباقين يستثير إعجابهم بشخصى

ثم جاءنا من الخارج صوت الشاويش لبيب . . كان يأمر الحارس .
« اعمل تمام ياعسكرى وخرج الأفندى الباقى عندك »
وانهالوا على يهنئونى بهذا الافراج ويذكروننى بأن لا أنسى المرور على منازلهم .. قلت للترزى . .
— وانت ياعم حسين !! مش عاوز حاجة !!
قال :
— « ربنا يخليك . أعوز إيه . هوفى البيت حاجة ، عاوز أخرج من المصيبة وأرجع لعيالى .. فقلت :
— حتخرج بإذن الله ياعم حسين . . فاجاب فى ضراعه وسكون . .
— ربنا يسمع منك يا ابنى .. علشان خاطر الغلابة المساكين !!
وكان يشير بذلك إلى بناته الثلاث وزوجته ووالدته .
وسرت أجرجر أقدامى ووقفت أمام الشاويش لبيب وأنا شارد اللب متبلد الفكر ، وقد أظلمت الدنيا فى وجهى ووجدتنى أساق إلى الحجرة التى رقدت فيها أمس وأول أمس وورائى جندى شاكى السلاح قلت —
— « على فين ياشاويش..» فاجابنى :
— تنام يا أفندى .. مش عاوز تنام !!
« أنام . دول أفرجوا عنى؟»
— مسيرهم يفرجوا عن حضرتك انما المجصود اننا نخلى الراجل المجرم ينام فى الحجز مع الحرامية علشان يتأدب.. بيتهمنا بالسرجة المغفل وإذن فقد خلى الجو للشاويش لبيب وبدأ ينتقم من « عم حسين » وجفانى النوم طويلا . واستبد بى الحزن حتى كاد يقتلنى . وجاء

الصباح وفى عزمى أن لاأستكين لما حدث .. ورفضت دخول الحجز قبل أن ألقى المأمور أو الضابط . .

كان الشاويش لبيب قد انصرف وحل محله آخر رفض أن يسمح لى بمغادرة مقعدى أمام الحجز إلا إذا عرف موضوع شكايتى . . وأخيرا وبعد ساعة من الصمت . .

ــ لازم يحققوا فى موضوع عمى حسين .. اذاى تنيموه فى الحجز وتبهدلوه راجل عجوز مايستحملش وعيان بقلبه . دا كلام فارغ . . واستبداد .

ــ حسين . . التوزى .. طلع افراج امبارح .

ولكنى لم أصدقه إلا بعد أن اطلعنى على دفتر الحجز . . أفرجوا عنه أمس غير أن الشاويش لبيب « حجزه » لحسابه الخاص ليلة كاملة لينتقم منه . ونام الرجل على الأسفلت مع خمسة عشر مخلوقا بشريا فى حجرة لاتسع أربعة فيران ..

أما أنا فلم أدخل الحجز ثانية ، إذ لم تكد تمر ساعة حتى كان البشير قد أسر فى أذن الشاويش بأن أمر اطلاق سراحى قد صدر . ولم يبق إلا أن يصدق عليه « جناب المأمور » .

ولم يكن من المستاغ والحال كذلك أن يدخلونى الحجز ، بل كان يلزم أن ابقى خارجه وان أنال هذه الرعاية المفاجئة من جانب العساكر أجمعين ..

وجاءوا يهنئونى فى ملق فاضح .. وكاد أحدهم ينطق طالبا (حلاوة الإفراج) ولقد فكرت فعلا أن اوزع عليهم بعض ما أحمل من نقود غير أنى لما جاء أمر اطلاق سراحى ، وقد جاء متأخرا فى الساعة الخامسة

بعد عودة المأمور عصراً، ترددت طويلاً في اعطائهم شيء .. ذلك أنني لم أكد استلم حاجياتي من الأمانات حتى وجدتني أقف أمام الشاويش وبجانبي . . .

من هذا الذي يقف بجانبي .. بيومي !! إنه بيومي !! بيومي مقبوضاً عليه بأمر من الشاويش لبيب الذي لقيه في الطريق وقد صدم بدراجته فتاة صغيرة فأرسله مع عسكري من عساكر الدورية ليودعه الحجز ..

وإذن فقد عاد بيومي إلى الحجز ليسرق المحجوزين ..

وعاد بأمر الشاويش لبيب ..

كانت الأنوار مضاءة في كل مكان . وقد علقت الزينات على طول الطريق احتفالاً بعيد الجلوس الملكي السعيد .. وكان الهواء راكداً ثقيلاً كمياه المستنقع .. والناس يسيرون وسط الطريق كالهوام وخرجت مرة ثانية أجرجر أقدامي ... إلى الحجز الكبير

(انتهت)

یا مبارک



عاش عبد الجواد أفندى طوال عمره يقدس والده الشيخ عبد المقصود عبد الكريم ، فكان يقبل يده فى كل مناسبة ، ومن غير مناسبة .. ومع أن عبد الجواد افندى عبد المقصود يدخن اليوم أمام الملأ ، فقد كان من المستحيل عليه أن يمسك بالسيجارة فى يده أمام والده .. ويوم مات المرحوم ، وسار الناس وراء النعش ، يشيعون ذكراه وراح عبد الجواد افندى يتقبل تعازيهم فى داخل السرادق ، وأيضا وهو واقف أمام باب المدفن « وحياتك وشرفك كان ولغاية يوم الأربعين» لم يدخن عبد الجواد افندى ولم يضع السيجارة فى فمه احتراما لواجب البنوة ، ولقداسة طاعته للمرحوم الحاج عبد المقصود عبد الكريم والده ..

وتقف ، فيرفع عبد الجواد افندى ذراعه الأيمن وهو يحدثك ، فاذا عصاه وقد علقت بجوارها السبحة فى أصابعه تهتز عاليا فى الهواء .. « لكن يامبارك داحنا فى أيام سودة » . ويروح عبد الجواد افندى يشرح لك الأيام وسوادها . دعك من ابنه عبد الكريم عبد الجواد عبد المقصود الطالب فى الثقافة .. دعك منه « يامبارك » لأنه يدخن ويفعل كل موبق أراد عبد الجواد افندى أو لم يرد .. ولكن « الخيبة والمصيبة » .. البنت ... البنت سميرة عبد الجواد عبد المقصود .. « احنا فى آخر زمن ولا حدش دارى .. تصور يامبارك إن بنتى سميرة المفروضة ، حا أقول لك ايه !! بتشرب سجاير !! لا ياريت !! » ويسترسل عبد الجواد افندى مغيظا محنقا فيحدثك عن سميرة .

أن سميرة قد بلغت اليوم التاسعة عشر من عمرها .. أى أنها فى سن الخطر ، السن الذى يلزم أن يدبر لها والدها عندما تبلغه ، زوجا طيبا مناسبا قادرا على حمايتها . ويهز عبد الجواد افندى رأسه وهو يحدثك عن سميره . وتأخذك الدهشة حين تعلم بعد دقائق معدودة من متابعة الحديث أن سميره هذه ، قد حصلت اخيرا على شهادة التوجيهية ، وإذا خلاصة المحنة التى يرويها لك عبدالجواد افندى ، والتى يعرفها معظم جلسائه من زبائن قهوة « فرحات » ان سميره ترفض ان تتزوج وتفضل ان تواصل دراستها فى الجامعة كبقية زميلاتها من الطالبات . .

وقد تختلف مع عبدالجواد أفندى فى نظرته إلى مستقبل سميرة .. وقد تتفق معه وتتحمس فتفضل لها الزواج عن دخول الجامعة كما يتحمس أغلب الأصدقاء المقربين لوالدها . . ولكنك فى نهاية الأمر وتقديراً لحديث عبد الجواد أفندى الذى لا ينقطع ولا يفرغ عن هذا الموضوع لا تستطيع إلا أن تسلم معه إن البنت مهما تعلمت فلا بد أن تتزوج . .
« أمال ! ! لازم البنت تتجوز . . دى مهمتها فى الحياة يامبارك . »

كان عبد الجواد أفندى قد صحب عائلته إلى الريف فى الأجازة الصيفية كعادته كل سنة فظهرت نتيجة الثقافة التى نجح فيها إبنه الأصغر عبدالكريم .. وتلتها نتيجة التوجيهية التى حصلت عليها سميرة . وعاد عبدالجوادأفندى بعد انقضاء الأجازة فاستلم رئاسة قلم الشطب فى الديوان العام من وكيله على طول ساعات الصباح ، واستلم آذان زبائن قهوة « فرحات » الذين أصبح لاهم لهم ولا حديث سوى موضوع سميرة بنت عبد الجواد أفندى . . إذ الواقع أن عبد الجواد أفندى رغم دقته فى كل شىء وحرصه على كل شىء لم يكن

كتوما ، وخاصة فيما يمس حياة الأولاد ومستقبلهم. «تصور يامبارك الواد عبد الكريم ابنى يرفع إيده عليه إمبارح» . وبقية القصة يعرفها كثير من الجالسين ، ويعرفها حميدو ماسح الأحذية ، وعبده عبدالرسول جرسون القهوة ، كلهم يعرف حاجة عبد الكريم الدائمة إلى «الفلوس» ومطالبته المستمره لعبد الجواد أفندى .

« لكن على كل حال يامبارك . . المهم سميرة . . سميرة أهم من عبد الكريم » وكان عبد الجواد أفندى ، قد اقتنع فعلا بأن سميرة لايجب أن تلتحق بالجامعة ، لكن كثرة حديثه عن موضوعها مع مختلف الناس ، أذابت غير قليل من جمود الفكرة فى ذهنه ، خاصة وإن الست شفيقة حرمه ، كانت تميل إلى جانب إتمام تعليمها ، رغم أنها شاركته فى توصية الخاطبة أكثر من مرة : « عاوزين عريس يكون على قدة وعلى قدنا . . يعنى لا هو غنى ولا هو فقير . . ابن ناس طيبين وبس » .

وجاء عريس وراح عريس ، و بلغ عدد العرسان فى الفترة مابين عودة الأسرة من البلد ، لحين بداية العام الدراسى أكثر من خمسة عرسان ، لكن سميرة كانت ترفض . . « مش عاوزة اتجوز . . مش عاوزة !! حاتجوزنى بالقوة ؟! » .

ولم يفقد عبد الجواد أفندى الأمل . كان يتوقع أن يأتى وقت تميل فيه قلب سميرة لواحد من هؤلاء العرسان . ولم يكن كثيراً على عبدالجواد أفندى أن يدفع جنيها ثالثاً للخاطبة من أجل عريس جديد .

وجاء العريس الجديد ، لم يكن مقاولا أو بقالا أو عمدة كما كان سابقيه

وإنما كان طبيباً ناجحاً ، أعجبه فى سميرة شخصيتها وسمارها ، وكانت قدزارته فى العيادة أكثر من مرة لمعالجة أسنانها ، لكن سميرة رفضت أن تتزوج وفضلت الإلتحاق بالجامعة .

« عجايب! .. عجايب يامبارك !! دكتور أسنان وفى الحكومة وفاتح عيادة .. وتبقى الجامعة أحسن منه !! ماذا ستستفيد سميرة من الجامعة !! شهادة .. وبعدها تشتغل مدرسة . . ولكنها ستتزوج فى نهاية الأمر !! فما فائدة هذا التعب كله . « ليه اللف والدوران !! ليه يامبارك .. مادام الراجل جه لحدنا »

كان عبدالجواد أفندى يريد أن ينتهى من سميرة ، كما يفضل كل والد أن ينتهى من إبنته ، وكأنها الوزر الثقيل الذى تحتمه أقوم العلاقات فى حياتنا ، حقيقة أن عبد الكريم شاب ليس من المنتظر أن يكون له مستقبل يشرف والده « انتهى واللى كان كان » وقد خابت آمال عبد الجواد أفندى فى ابنه عبدالكريم ، حتى راح يسعى لإلحاقه بوظيفة فى الحكومة بعد أن يئس من إقناعه بإتمام دراسته ومحاولة الحصول على التوجيهية ولكن دون جدوى ، فعبد الكريم لم يحصل على الثقافه ، إلا بعد أن أفرغ إيجار الفدادين كله ، سنوات ثلاثة متتاليات ، فى جيوب المدرسين كان فى كل سنة يسقط فى الدور الأول فى أكثر من ثلاثة علوم وفى كل سنة يسقط فى الدور الثانى فى نفس هذه العلوم « سنة ورا سنة يامبارك ديونى كترت » وبعد هذا يرفض عبد الكيم أن يتم تعليمه ليحصل على التوجيهية بينما تصر سميرة على ألا تتزوج لكى تلتحق بالجامعة . .

لم يحدث أبداً فى حياة عبد الجواد أفندى أن تعرض لمثل هذه المحنة ، ومن أجل هذا لم يفلت عبد الجواد أفندى من الإصابة بالسكر . ويوم

بلغه نبأ نجاح سميرة فى الكشف الطبى،وقبول أوراقها فى كلية الحقوق .
أصيب بنوبة، شخصها طبيب العائلة بأنها ذبحةصدريةخفيفة .. وسهرت
الست شفيقة بالليل إلى جوار زوجها المريض تسقيه ملاعق الدواء
وتمده بالحبوب ، بينما هو يشتدويعنف فى تقريعها... أنها هى السبب ..
هى التى شجعت البنت على أن تسلك هذا الطريق .. هى التى استعانت
بابن شقيقتها الموظف بإدارة الجامعة لإلحاق سميرة بالحقوق .. «ليه
يا شفيقة تعملى كده !! واحنا بنوع تعليم بنات !!دش حرام عليكى
يا شفيقة !! وتدخلها الحقوق كمان !!

وما كان من الممكن أن يتصور عبد الجواد أفندى أن تشتغل ابنته
يوما من الأيام بالمحاماة .. أما الست شفيقة فإنها لم تكن تدرى الفرق
بين الحقوق وغير الحقوق .. «أهو كله جامعة والسلام» .. كانت سميرة
هى التى أرادت ذلك لأنها لم تكن تحب التدريس ولا المدرسين .

وأصبح الصباح وكان ذلك يوم الجمعة، فخرج عبد الجواد أفندى
ليصلى فى الحسين ودخلت الأم على سميرة فى حجرتها فوجدتها تبكى ..
إنها هى التى تسببت فى مرض والدها . وأخيراً وبعد حديث طال حتى
نسيت الأم «حلة الرز» على النار «فشاط» الرز . . استطاعت البنت
أن تفهم من أمها أن عبد الجواد أفندى، يمكن أن يقر الموقف بكامل
تفاصيله، ويقتنع ويرضى بما حدث ، لو أن سميرة حولت أوراقها إلى
كلية الآداب لتصبح مدرسة ، إذ الواقع أن عبد الجواد أفندى رغم دقته
فى كل شىء وحرصه على كل شىء لم يكن متعنتا إلى حد الجمود وخاصة
فيما يمس حياة الأولاد ومستقبلهم .

وخرج عبد الجواد أفندى من صلاة الجمعة وتوجه إلى القهوة ليجلس.

قليلا مع إخوانه وأصحابه ، وكان قد مر عليه أسبوعاً كاملا وهو مريض طريح الفراش ، واشترى عبد الجواد أفندى من أحد الباعة السريحة سبحة جديدة أعجبه لونها .. ومرت من أمام القهوة سيارة أنيقة تقودها فتاة فى فمها سيجارة .. ولفت البائع نظره إليها . « اتفرج حضرتك !! ولسه ياما حنشوف !! » وتنحنح عبد الجواد وهو يمد يده ليخرج ثمن السبحة.. « آخر زمن يا بنى .. آخر زمن . هما خلو لنا حاجة .. دول بقوا دكاترة وحيطلعوا محامين وبكره يعملوا مهندسين ». وغادر عبد الجواد أفندى القهوة فى الساعة الثالثة بصحبة الشيخ خاطر أستاذ اللغة العربية فى مدرسة الحى الابتدائية الأميرية .. وكان طبيعيا أن يدور الحديث بين الرجلين عما انتهى إليه الحال بالنسبة لابنه عبد الجواد أفندى . « تصور يامبارك أنها عايزة تدخل كليـة الحقوق وتطلع محامية !! تصور !! » . وصعق عبد الجواد أفندى وكادت تعاوده الذبحة الصدرية حين قال له الشيخ خاطر فى صوت هادئ رزين « والله دا عين العقل . أنا عندى الحقوق أفضل من الآداب .. يا ريت كان عندى بنت وأنا أدخلها الحقوق » .

وراح الشيخ خاطر يحكى لعبد الجواد أفندى كيف فشل فى الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعى ، أثناء دراسته بالأزهر الشريف والحسرة التى تلازمه حتى اليوم لضياع هذا الأمل ..

ولم تهدأ ثورة عبدالجواد أفندى فى المنزل ، بل زادها الرز « الشايط » اشتعالا ، سيما وأن اللحمة كانت « عجوزة » .. وحينما دخل لينام رغم أن الساعة كانت قد تخطت الرابعة لحقت به زوجته بملعقة الدواء . « والحبتين الحمر بتوع الضغط » . وراحت تهدئ من خاطره وأفهمته أن سميرة ستدخل الآداب بدلا من الحقوق .. ويبدو أن عبد الجواد أفندى كان

قد تأثر بكلام الشيخ خاطر فضلا عن تأثره برائحة الرز الشايط وطعم اللحمة « العجوزة » فزعق فى وجهها بصوت عال : « تدخل اللى عايزة تدخله . . انشالله تدخل جهنم . . »

وبعد أربع سنوات كانت سميرة قد تخرجت من « جهنم » وحصلت على ليسانس الحقوق . . وفى خلال هذه السنوات لم يشعر عبد الجواد أفندى بوجود سميرة . . ولهذا لم يحاول أن يفكر فى البحث لها عن عريس وكان لابد لعبدالجواد أفندى أن ينصرف لشىء يشغله ويضنى شيخوخته ويفقده طعم الراحة ويزيد عليه مضاعفات السكر « وإبر الإنسولين » حتى أصبح جلد جسده المحطم الضعيف من كثرة مافيه من ثقوب « مصفة شاى يامبارك . . ذى المصفه اللى فى ايدك تمام » . . ويرشف عبد الجواد أفندى آخر ماتبقى فى قدح القهوة السادة الذى أمامه ، ثم يتابع حديثه فى عصبية ظاهرة . « البنت وعرفنا آخرتها . . إنما الولد عبد الكريم يامبارك . . »

وحاول يامبارك أن تقنع عبد الجواد أفندى بأن عبد الكريم قد صلح حاله ، إذ أنه قد التحق أخيرا بإحدى الشركات ويتقاضى مرتبا لا بأس به . وحينذاك يهب عبدالجواد أفندى فى وجهك : « كلها يومين ويطلع منها . . »

والواقع أن عبد الجواد أفندى كان معذورا كل العذر فى ابنه عبد الكريم ، لأنه خلال السنوات الخمس التى انقضت منذ حصوله على شهادة الثقافة . . لم يكن يمر عليه أكثر من ثلاثة شهور حتى يعاود البحث له عن عمل جديد . . وجاء وقت أقام عبد الكريم فى المنزل عاطلا أكثر من عام . . « خمستاشر شهر يامبارك ولا شغلة ولا مشغلة . . »

أما عبد الكريم فكان شابا وسيما على شيء كثير من خفة الظل . . كان من هذا النوع الذى لا يعبأ بشيء ولا يهتم بشيء، أكثر من اهتمامه بملبسه، ونوع السجاير التى يشربها وكثرة عدد البنات اللاتى يعشقنه . ولم يكن لهن وجود غالبا إلا فى مخيلته ، ومع إنه يعرف تمام المعرفة إن والده عبدالجواد أفندى لا يزيد عن كونه رئيسا لأحد الأقلام وقد شارف على الستين ولا يزال بعد فى الدرجة الخامسة ، إلا أن « كرم » كان يعيش مع الوجهاء من إخوانه، الذين لقبوه بهذا الإسم، وكأنه ابن أحد البكوات . . ولو أن عبد الجواد أفندى كان يدرك هذه الحقيقة عن ابنه منذ البداية، ولم يشجعه على الظهور فى هذا الوسط، لتغير موضوع هذه القصة التى نكتبها ، لكن عبد الكريم عاش فى موضع غير موضعه الذى نشأ فيه ، عاش غريبا عن أهله .

أما سميرة فكانت على العكس من أخيها الأصغر . . تعرف حقيقة وضعها تماما، ومن أجل هذا فضلت ألا تتزوج إلا وفى يدها وظيفة . . كانت سميرة تعرف أن الثلاثة أفدنة التى يملكها عبد الجواد أفندى ستباع بعد انقضاء عام أو عامين، وأن أمها يوم يموت والدها لن تحصل على معاش، وأن شقيقها غر مفتون لا يقدر حقيقة حياة أسرتها الكريمة . . وأكثر من ذلك وأعمق، أن سميرة كانت تعلم بثاقب فهمها أن والدها وإن كان يعارض فى كل خطوة لا تتفق ونظرته الراكزة للحياة، إلا أنه أمام قوة الحياة ذاتها، لا يستطيع إلا أن يسلم بما حدث وإن أصر على رأيه وتمسك بفكرته، وظل إلى نهاية العمر يعلن معارضته وسخطه . . وكان حتما ألا تتراجع سميرة يوم تخرجت من كلية الحقوق وراحت تسعى للاشتغال بالمحاماة . . وفعلا التحقت بمكتب أحد كبار المحامين لمدة

شهرين ،ثم حلت الأجازة الصيفية القضائية .. لم تعجب سميرة بالمكتب. ولا بصاحبه ولا بأعماله .. فلم تكن هذه هي المحاماه التي حلمت بها .. ثم أنها كانت تحس بأنها في وضع مستنكر من الجميع ، فلم يكن الزبائن حتى النساء منهن ، يثقن فيها أقل ثقة .. وكذلك لقيت أعراضا من القضاه ..

« القضاه معذورين .. تصور يامبارك لما واحد يشوف واحده ست واقفة قدامه تدافع في قضية .. » ومع أن هذه الست هي سميره ابنته فإن عبد الجواد افندى لم يكن ايوافق على هذا الوضع .. « مش أصول يامبارك ... مايصحش » .

ولكن ما الذى يصح إذن حتى تصحح هذه الأوضاع ؟ ! ما من « مبارك» يعرف عبد الجواد افندى إلا وأشار عليه بأن الواجب أن تتزوج سميرة ..

وراح عبد الجواد افندى يبحث لها من جديد عن عريس .. « ابن ناس يكون مبسوط ويعرف يقدرها .. » وكان عبد الجواد افندى يعني مايقول . إن سميره فتاة اليوم .. سميره المحامية أصبح... لابد لها من عريس « مبسوط » أما سميرة فتاة الأمس فقد كان يكفي أن تتزوج عريس « ابن ناس طيبين وبس » .

لكن سميرة لم تكن تريد الزواج، لاعن قلة في العرسان ولاعن زهد في الزواج .. أنها لم تفشل في المحاماة، ولكنها كانت تريد وظيفة،وظيفة يامبارك تعمل بيها إيه..هي البنت اتخلقت للوظيفة ولا للبيت يامبارك» .. وكانت محنة قاسية على عبد الجواد افندى ،فها هو يشرف على الستين

وابنه عبد الكريم قد خاب وترك الشركة واشتبك معه فى معركة فاصلة انتهت بمغادرة المنزل إلى غير رجعة وهو اليوم لايعرف له مصير . . وهاهى الست شفيقة حرمه تصاب بشلل مفاجىء يقعدها فى الفراش دون حراك . وها هو نفسه يزداد عليه السكر وتهزه رعشات الضغط ويبلغ الستين ، فيحال إلى المعاش.. وليس له معاش . . ثم هاهى سميرة فى نهاية الأمر ، ترفض أن تتزوج وتتشبث بالوظيفة التى حصلت عليها أخيراً . . .

ووقعت العصاة من يد عبد الجواد افندى المرتعشة وكان يحاول أن يضع السبحة فى جيبه وهو يسير وئيدا نحو المنزل فى صحبة الشيخ خاطر يسأله عن سميرة .. «مبسوطة والحمد لله » ذلك أن سميرة كانت قد حصلت على الدرجة الخامسة ، بعد قضاء أربع سنوات ونصف فقط فى الوظيفة.. وبذلك سبقت كثير من أقرانها « لكن اللى مزعلنى يامبارك قلة جوازها .. »

ولما عاد عبد الجواد أفندى إلى المنزل وجد سميرة جالسة وحدها فى الصالة ، فأخذت بيده حتى أجلسته بجوارها على الكنبة .. كانت أمها قد ماتت منذ ثلاث سنوات ، وهى تعيش بمفردها مع والدها.. أما كرم فقد انتهى به المصير إلى الزواج من «غانية» وهو لايكاد يراهم ، بل أنه لم يحضر الى المنزل سوى مرة واحدة .. يوم توفيت والدته .. وأخرجت سميرة من «الشنطة » قيمة ما تسلمته من ماهية الشهر على حساب الدرجة الخامسة .. وتمنع عبد الجواد أفندى فى أول الأمر ، ولكنه لم يستطع فى النهاية إلا أن يأخذ «ورقتين بعشرة كفاية وخلى لك أنت الباقى يابنتى»

ودخل عبد الجواد أفندى حجرته فى سكون ، وخلع ملابسه وقصد الفراش لينام ، بعد أن لف العشرين جنيها فى منديل أبيض تحت الوسادة
ماذا كان يمكن أن يصير إليه حال عبد الجواد أفندى لو أن سميرة طاوعته وتزوجت بعد التوجيهية !! أو لو أنها طاوعته وتزوجت وهى فى الوظيفة !! «سبحان الله» كان زماننا يامبارك ميتين من الجوع »
وتحسس عبد الجواد افندى العشرين جنيها تحت الوسادة وربت على المنديل بأصابعه المعروقة الرفيعة .. وراح يدعو الله أن يرزق سميرة « بعريس طيب وابن ناس يعرف يقدر قيمتها ...»

انتهت

السيّد محمد ابو عباية



لم يعرف القدامى نظام التخصص . ولا أدرى إذا كان ذلك قد أفاد إنسانيتنا الحديثة أم أضرها . فالذى يبلغنا عن الكتب، أن بعضهم كان يشتغل بالتجارة والحياكة ويقرض الشعر. وفى نفس الوقت، يقوم بتحضير العقاقير والأدوية وربما تكفل أحياناً بشئون البناء حتى ولو لم تكن هناك أزمة مساكن .. على كل حال كان الواحد من أهل زمان يشتغل بأكثر من حرفة ..

أما فى هذا الزمن فإن السياسيين وحدهم هم الذين يزاولون السياسة ويحترفون التجارة، ويشتغلون بالاستيراد والتصدير . بل وبالطب أيضاً والمقصود بالطب مداواة أدران الشعوب عن طريق « الحكم »

وقد بلغ نظام التخصص فى عصرنا الحديث أقصى منتهاه .. فالحداد يجب أن لا يشتغل إلا بطرق الحديد . والسائق يجب أن لا يشتغل إلا بقيادة السيارات إذا كان يحمل رخصة سيارة ، وبقيادة الخناطير إذا كان يحمل رخصة خنطور .. كلاهما يجب أن يكون فى موضعه من الحياة .. فإذا لم يجد الحداد ما يطرق وإذا لم يجد السائق ما يقود فكلاهما لا بد أن يصبر وينتظر حتى يوجد الحديد وتوجد السيارات .

لكن يبدو أن السيد محمد أبو عباية لم يكن من أهل زمانه . . ولا نحب أن يقال أنه لم يكن يؤمن بنظام التخصص ونظريات التخصص وأساليب التخصص .. فلقد نشأ السيد محمد بشهادة من عرفه ، حرفياً متخصصاً أصيلا .. واشتغل من مبدأ حياته بصناعة الحلل النحاس .

كان محمد أبو عباية نحاس ولكن أمانة الصنعة تقتضينا أن نقول أنه اشتغل

صبياً « لحداد » فى بنها ، وتخصص دون أقرانه فى صنع « أغطية الحلل النحاس » . ولقد ظل محمد أبو عباية قبله أنظار كبار صانعى الحلل فى عاصمة القليوبية حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره السعيد المديد ، فلما طابوه إلى القرعة غادر بنها ليحط لرحال فى القاهرة حيث كان منبته الأصلى .. وفى سن الواحد والعشرين تقدم إلى الكشف الطبى ولكنهم « شركوه » . أعنى أنه لم يقبل جنديا فى الجيش .. ولم يكن ذلك لضعف فى الصحة أو نقص فى التكوين الجسمانى لأنه والحمد لله كان مفتول العضل قوى الساعد وليس فيه من عيب طولا أو عرضا .. ولكنهم «شركوه» والسلام .

ولكم كان يشرف السيد محمد أبو عباية أن يدخل الجيش ليخدم بلاده ، لكنه اضطر أن يقضى أربع سنوات يهيم فى القاهرة سعياً وراء القوت ، فلم ينتفع بتخصصه السابق فى صناعة « غطيان الحلل النحاس » بل فى صناعة النحاس إطلاقا .. يقول محمد أبو عباية نفسه فى تعليل هذه الظاهرة التى سببت له الكثير من الشقاء .

ــ « أصلها صنعة ميتة وبتاعت أرياف بس » .

ذلك أن « كل ذوات مصر دلوقت بيطبخوا فى الألمنية وعلى البوتجاز » .

ومحمد أبو عباية يقول هذا الكلام اليوم بعد أن بلغ سن الأربعين ، ويقوله وهو يشتغل بهلواناً أمام حانوت افتتح حديثاً لبيع السمك . .. نحن الآن فى فترة الاستراحة ، وقد خلع أبو عباية «الطرطور» وبدأ الطلاء الأبيض الذى يعلو وجهه ينمحى تدريجياً من كثرة العرق . ويجلس أمامك أبو عباية على الأرض ، وقد أسند رأسه وظهره إلى

الحائط بجوار باب حانوت السمك .. ويلوح بأصابعه ليشهدك على أفواج الزبائن، الذين أقبلوا لشراء السمك الطازة والجمبرى بفضل دعاية أبوعباية . وقد لاتحس بأى أثر للحزن فى نبراته وهو يقص عليك حكايته . . .

وايه هيه حكايته !!

بعد أن ترك بنها عاش فى القاهرة لمدة أربع سنوات تقريباً بدون أى عمل، لأنه لم يجد المجال الصالح لمزاولة صناعته الكاسدة . «اللى غطى عليها الألمنيوم .. » وإذا به يجد نفسه . أحياناً يبيع اليانصيب وأحياناً يشتغل جرسوناً فى مطعم فول . وأحياناً تجده فى محل « فراشة » يقدم القهوة والشربات فى المياتم والأفراح .. وأحيانا يستأجره بقال ليحمل البضائع إلى بيوت الزبائن .. كل شغلة ومشغلة .. «وزى ماترسى .. دق لها .. » وذات مرة، أوقعه سوء الطالع أو حسن الطالع فى معلم «جزار تقيل » وكان المعلم يشتغل إلى جانب بيع اللحم بتهريب المخدرات فاستخدمه فى نقل وتهريب «البضاعة» .. ثم قبض على المعلم فى « قفشة جامدة » وهرب أبو عباية ، ونفد بجلده، لكنه قبض عليه فى مساء عاصف بجوار احدى الحانات وأودع السجن بتهمة التشرد ولم تشفع له أوراق اليانصيب التى كانت بين يديه .. « وتعرف يابيه .. وبناسم .. أنا كنت باجرجر السكرانين لبيوت الحرام » . .

وتسأله مستنكراً ...

« ودى شغلة يامحمد !؟ »

فيجيبك فى أسف وندم ظاهرين . . .

— « أكل عيش .. حنعمل ايه !؟ ومن دا كتير !؟ » .

وحين يناديه حسين أفندى صاحب محل السمك يفزع أبو عباية مستأذنا فى لباقة . .

— « عن إذن البيه . . »

ويقوم ليقف أمام باب المحل مشمرا عن ذراعيه . . ثم ينتصب فوق إحدى الكراسى المخصصة لذلك ، وفى يده الجرس وعلى رأسه « الطرطور الأحمر » . وبعد أن يدق الجرس دقات منتظمة ، يطلب إلى زميله أن يقرع « الطرمبيطة » ويكون الأطفال والصبية قد تجمعوا فى حلقة صغيرة أمام باب المحل ، وأبو عباية قد أمسك فى يده سمكة كبيرة يدلل عليها . . ولأن معظم الأطفال والصبيه من تلاميذ المدارس الإلزامية المنتشرة فى الحى ولأن ابو عباية داعية ملهما ، فانه كان يعرف تماما كيف يثير انتباههم فهو يبدأ فى صوت مرتفع ، فينطق الحروف الأولى التى تتكون منها كلمة « سمك » والاطفال يرددون من بعده ، كما يفعل المدرس معهم فى داخل الفصل ، وهو يعلمهم هجاء الكلمات الجديدة . .

« سين . . ميم . . كاف . . » . . « سمك »

ردوا وارايا يا أولاد ردوا . .

سين . .

ويرد الأولاد . .

سين . .

ويزعق ابو عباية . .

ميم . .

ويرد الأطفال . .

«ميم..»

ويزعق ثانية..

«كاف..»

ويرد الصبية..

«كاف..»

ويقول أبو عباية فى صوت عال..

«تبق إيه ياولاد ؟؟»

فيقول الجميع بما فيهم الآباء والأمهات وأغلب الكبار الذين يشاهدون أبو عباية..

«س.... مك»..

وهكذا يكون الحال فى كلمة «بياض» وفى بقية الكلمات الأخرى التى يحاول أبو عباية أن ينفذ بها إلى واعية الأطفال.. وافهام الكبار «واللى ما يشترى يتفرج..»

وبعد أن يضحك الأطفال.. ويضحك معهم الآباء والأمهات جميعا يتطرق أبو عباية إلى وصف محاسن السمك موضحا الفرق بين السمك «الصاحى» الذى يباع فى هذا المحل الجديد.. والاسماك الميتة «التى تباع فى المحلات.. الروبابيكيا..»

ويمسك بإحدى السمكات الصغيرة ويحكى على لسانها قصتها وهى فى البحر وكيف هربت من أقرانها ورضيت طائعة أن تلتهم الطعم من سنارة الصياد الذى جلبها لهذا المحل لأنها ستباع فى محل جديد تضيف ويقول على لسان السمكة، أنها لاتزال طازجة ويدعو من لا يصدق أن يتقدم ليسألها بنفسه.. وينبرى أحدهم من وسط الحلقة (وهو طبعا من

أعوان أبو عباية) ليخاطب السمكة المدلاة في يده . . ويرد عليه أبو عباية بلسان السمكة، بنكات وقفشات تضحك و الثكلى ، أى جمهور الشارين . .

وترقب أنت هذا المشهد فيأخذك العجب . . إذ لولا التمسك بمبدأ التخصص لكان أبو عباية اليوم يرأس إحدى مكاتب الدعاية لتوزيع أروج المنتجات في الشرق الأوسط .. هذا إذا لم يكتشف أحد أعضاء مجلس إدارة الشركة، التي تقوم بهذا التوزيع، وهو يزور المنطقة، عبقرية صاحبنا فيوصي بنقله إلى المقر الرئيسي بنيويورك أو بالقليل إرساله في بعثة عاجلة على نفقة النقطة الرابعة ! ! لكن أبو عباية رغم قدرته الفذة على إخراج مثل هذا المشهد العجيب لم يكن يحمل أى دكتوراه في الدعاية، حتى يمكن أن ينال مثل هذا المجد، بل إنه مع الأسف الشديد، لا يعرف الإنجليزية ولا يكتب العربية، ولا يفرق بين الألف والياء، على حد ما ستقول أنت بنفسك .

فإذا رأيت الجوع تتدافع نحو المحل، وأبو عباية يلوح لهم بيديه ليقبلوا على الشراء، ثم رأيت المحل قد امتلأ إلى نهايته ، ودخله المتفرجين قبل المشترين، وتطلعت بعد كل هذا إلى أقدام أبو عباية وهو يحاول التخفيف من شدة هذا الزحام فرأيته حافيا . . فلا يجب أن تأخذك الشفقة ! لأن السيجارة التي كان يمكن أن تقدمها إليه، قدمها إليه فعلا حسين أفندى صاحب المحل . . ثم إنك لن تستطيع أن تربت على كتفه ليستريح كما يربت حسين أفندى راضيا فخوراً . . ذلك أن حسين أفندى هو الذى استأجره لك ولبقية الزبائن من أكلي لحوم السمك ! !

وكل الذى سيحدث بعد هذا، أن يعود أبو عباية فيجلس أمامك وهو يتصبب عرقاً وقد انحبس صوته الجهورى، حتى ليستحيل عليك سماعه عن قرب . والرجل معذور لأنه وقف ينادى أكثر من ساعة ولم يصمت خلالها دقيقة واحدة ..

وقد تسأله من باب الفضول فحسب ..

– « أنت تعبت يا أبو عباية ؟ ! »

فيرد عليك فى بطء المنهوك، وبصوت خافت متقطع النبرات ..

– « من صباحت ربنا واحنا على كده .. الساعة دلوقت أربعة ونصف .. دخلنا على المغرب بعد ما لفينا الحتة أربع مرات .. ولسه والله يا عالم ما أكلت لغاية دلوقت .. وقدامنا كثير .. السمك ما بيخلصش ! ! وباع بيع ! ؟ ربنا يحنن عليه وعلى كل مسلم .. أمين يارب العالمين .. »

* * *

فاذا كنت شغوفاً بتتبع حياة محمد أبو عباية . وعدت بعد أسبوع إلى هذا المحل الجديد لشراء السمك مرة ثانية ، فسيحكى لك أبو عباية بقية الحكاية .. والذى حصل .. أنه بعد أن أودع السجن خرج منه بمحضر تشرد .. وكان عليه أن يستخرج رخصة ويحدد لنفسه مهنة . إذ لا بد من التخصص حتى ولو لم يكن هناك عمل يتخصص فيه الانسان .

... وبعد أن احترف محمد أبو عباية بيع اليانصيب تعرف على بعض الشباب من غواة التمثيل والمنلوجات فاشتغل معهم .. وكان أثناء النهار يتطوع بأداء بعض الخدمات نظير « لقمة العيش » .. وعندما يأتى المساء ينضم إلى فرقة التمثيل ويصحب الفرقة لإضحاك الناس فى الأفراح والموالد وحفلات « الطهور » . وقد اشتهر من ذلك الحين باسم أبو عباية لأنه كان يلقى منلوجاته عن الصعايدة والمغاربة وهو يرتدى العباءة . أما اسمه الحقيقى فكان محمد حسنين فراج .. وظل يمثل فى الفرقة فكان يسافر مع « التخت والعوالم والرقاصين » لإقامة الحفلات فى الأرياف .

غير أن الفرقة مع الأسف سرعان ما تفككت ، لأن أفرادها جميعا كانوا هواه .. « ترزية وحلاقين وتجارين والذى منه .. »

على أن أبو عباية لم يضع هذه الفرصة الثمينة، التى أتاحتها له الاقدار ، ليكتشف موهبته الكامنة فى القدرة على إضحاك الناس ، ولهذا أقلع عن إلقاء المنلوجات ، واشتغل فى مبدأ الامر عند أحد « الفرارجية » فى سوق الخضار الجديد . كان يقف أمام باب المحل ، ويدعو الزبائن لشراء الطيور . « وكانت الطيور على أشكالها تقع » كما يقول محمد أبو عباية .. فاشتهر بين التجار بهذه الصفة .. وكانت فرصته الوحيدة دائماً حين يفتتح محل جديد لينافس المحلات القديمة القائمة .. عند ذلك يستدعى أبو عباية ليشتغل بالدعوة للمحل الجديد أسبوعين « بالراحة » إلى أن تتم تربية الزبائن ، ثم يستغنى صاحب المحل عن خدماته ..

وتعرف فى النهاية كيف تخصص أبو عباية .. وكيف هيأت له مواهبه الفريدة أن يجد العمل الذى ولد له فعلا، رغم أنه احتاج لكى يتخصص أن يقضى عمرا طويلا مداه أربعين سنة حتى نجح فيما هيأته له مواهبه .. وتقول لنفسك — لو كان أبو عباية قد تعلم وتخرج من الحقوق أو الهندسة أو التجارة أو الآداب، لاستطاع أن يتخصص وهو فى العشرين أو الرابعة والعشرين على الأكثر !! ولكنه ظل يتخبط فى مختلف الحرف حتى اكتشف الناس فيه هذه الملكات الخافية » ....

ويتركك أبو عباية لأن حسين افندى صاحب المحل « كان عاوزه » ويقوم متثاقلا يجرجر أقدامه . . ويغيب عنك فى داخل المحل دقائق ثم يعود، ومعه زميله قارع « الطرمبيطة » يحادثه وكأنه يعزيه فى مصاب وقع له . فاذا أنت أدركت سر حزنه وسألته ...

— « خير يا أبو عباية !! »

أجابك حزيناً كاسف البال ..

« الحمد لله على كل حال . . خرجنا كل واحد بسمكتين .. بس خسارة . مافيش شغل من بكره » .. .

ذلك أن حسين أفندى لم يعد فى حاجة إلى الدعاية للمحل بعد هذا الإقبال الساحق على شراء أسماكه الطازجة .. .

وتقف لترقب أبو عباية وصاحبه ، وهما يدخلان المقهى المقابل لحانوت .. ويقول لك عقلك .

— « من يدرى !! ربما افتتح أحدهم غدا محلا جديداً لبيع الفاكهة .. إذ ليس فى محيط «الحته» من يبيع الفواكه .. وقطعاسيستأجر أبو عباية وصاحبه للدعاية للمحل الجديد .. »

وتهز أكتافك كما فعلت .. وتردد معى ..

من يدرى .. إن المرء لايستطيع مهما كان تخصصه أن يضمن غيب الغد . مادام هناك غد .. .. ؟

انتهت

حواديت عم فرج



وتجمع أطفال الحارة عند البيت الأصفر وكلهم فرح ، هذا الفرح البرئ الذى لا تعرفه إلا الطفولة ، قلق .. هذا القلق العاجل الذى يتخطى الزمن ويقفز إلى القادم، ولا يريد أن يعيش فى دقيقة الحاضر، لأنه لا يعرف الصبر . . درس العمر لمن طال به العمر ! ! تجمع الأطفال وليس بينهم حديث بغيض مما يدور عادة بين آبائهم، عن الدرجات والعلاوات والسوق والأسعار والأرض وإيجار الطين .

وكان بعضهم يلهو بكرة فى وسط الطريق ، وبعضهم يمسك بعصا يضرب بها جدار البيت ، وبعضهم يقضم بقية من خبز فى يده ، وبعضهم يتابع خيوط النمل وهى تنساب إلى أعلى سور الحديقة .. ورمى أحدهم الكرة فتخطت السور ووقعت داخل فناء البيت الاصفر ، فترك بقية الاطفال ألعابهم ، وجرى أغلبهم نحو باب الحديقة . .

وأطل أحدهم من فرجة الباب ، وأشار إلى ناحية البدرون .. وكانت الكرة قد تدحرجت إلى هذه الناحية ،وهم يرونها رأى العين فى أسفل الدرج حيث يبدأ الظلام المخيف .. وطال ترددهم .. ثم اندفعوا فى سرعة وكأنهم فى سباق للجرى . . ولم يستطع الذى سبق، حينما لمست أقدامه الأرض، أن يوقف نفسه، فيسقط ممدداً فوق بلاط البدرون، وكان بارداً كالثلج . . وجاء الآخر فاصطدم بأقدامه . . ولم يسقط مثله على الأرض فقام الذى وقع ليثب ناحية الكرة .. لكنه ضربها عن غير قصد بقدمه فتدحرجت إلى هوة الظلام البعيدة ..

ودقق الطفلان النظر . . وكان من الممكن رغم شدة الظلام أن يرى المرء بوضوح معالم المكان . . والكرة ساكنة هناك . . عند زاوية من زوايا الجدار العريض . . فتقدم الطفلان نحوها . . ولكنهما لمحا شيئاً غريباً بجوار الحائط .. كما لو كان إنساناً قد تدثر فى عباءة ونام .
وخاف طفل وعاد إلى زميله يدفعه أمامه إلى الداخل .. فتراجع الآخر ونسيا الكرة . . وراح كل منهما يشجع صاحبه . .

— « ماتخافش .. دا واحد .. دا راجل .. لازم حد نايم جنب الحيط .. انت خايف ؟ » .

واستعصى على الطفل المتكلم أن يرفع الغطاء فاستعان بزميله . . وانكشف الغطاء عن وجه انسان . . فبحلق الطفلان فى دهشة مشوبة بالفرح . . ثم اندفعا وكأنهما وجدا لقية . . وراحا يعدوان فى جنون نحو الباقين . .

— ولاد .. يا أولاد .. عم فرج نايم تحت .. عم فرج فى البدرون .
وطار الأطفال من كل صوب .. وفتحوا باب الحديقة وتدفقوا إلى البدرون وكلهم يردد فى سرور المباغت ..

— « عم فرج .. عم فرج .. عم فرج .. »
وكان كل منهم يريد أن يسبق الآخرين ليوقظ عم فرج . . وكل منهم يبعد صاحبه بكلتا يديه الصغيرتين ..

— عم فرج .. اصحى ياعم فرج .. ياعم فرج اصحى .. اصحى
ولكن عم فرج ظل مستغرقاً فى نومه لايصحو ولايتحرك. وأمسك أحدهم بكفه، وكانت ثقيلة كالحديد ، فسقطت من يديه الصغيرتين على الأرض .. وتجاسر طفل فوضع يده على جفون عم فرج يريد أن

يفتح عينيه بالقوة .. وذعر الأطفال حين صرخ كبير منهم ..

— « ياولاد دا ميت !! دا مش نايم !! دا ميت !!

وخاف الأطفال .. وتدافعوا خارجين وهم يصرخون ويولولون حتى اجتمع عليهم المارة من كل مكان .. وعرفت الحارة أن جثة ميت قد وجدت فى بدرون المنزل الأصفر العتيق .



وفى اليوم التالى .. راح الاطفال يبحثون عن مكان آخر يلعبون فيه غير هذا المكان .. حتى إذا جاء الليل تجمع الأطفال كعادتهم وجلسوا على الرصيف المقابل للخرابة التى تجاور البيت الاصفر من جديد .. وكان الاطفال قد تعودوا ذلك، لان عم فرج كان يخرج إليهم من الخص الذى فى وسط الخرابة، ليجلس معهم ويحكى لهم الحواديت.. وقد تعود الاطفال ألا يرجعوا إلى بيوتهم حتى يغلبهم النعاس فيحملهم عم فرج إلى أهليهم واحداً واحداً .. وفى مقابل هذا ينال شقة من البطيخ أو ما تبقى من الخبز والجبنة بعد طعام العشاء ..

وكان إذا تأخر طفل، وخاف عليه أهله، أمروا الخادمة وهى تخرج للبحث عنه، أن تمر أمام الخرابة .. وهناك تجد الطفل جالساً مع بقية الاطفال عند عم فرج .. ولكن الطفل يرفض العودة .. فاذا تأخر طويلا بعد ذلك، وعادت الخادمة لتحمله إلى النوم، استحال عليها أن تعود به معها، إلا إذا انتزعته انتزاعا من بينهم، وإلا أن قام بقية الاطفال مثله وقطع عم فرج الحدوته التى يحكيها لهم .

ولما ينصرف الأطفال إلى بيوتهم، يأخذ الآباء في ضرب أطفالهم وتعنيف زوجاتهم، ويستمطر الكل اللعنات على رأس عم فرج . . صاحب الحواديت التي لا تفرغ ولا تنتهي، فاذا تغيب عم فرج في ذات ليلة، وعاد الأطفال مبكرين إلى بيوت آبائهم، راح الآباء يضربون أطفالهم ويلعنون عم فرج لأنه قطع عن أطفالهم حواديته ، وأطلقهم عليهم في البيوت ليحرموهم الراحة والسكون ، من عناء الكد أثناء النهار الطويل . . .

وهكذا كانت اللعنات تنهال على رأس عم فرج . . غائبا . . وإذا حضر . . فلما مات أخيرا واكتشف الأطفال موته ، لم يكف الآباء ، ولم تكف معهم زوجاتهم الأمهات، عن لعن عم فرج وحواديته، لأنه بموته — وكأنه هو الذي أمات نفسه — حرمهم هناء الراحة ، من ضجيج أطفالهم بالليل . . .

فمن ياترى كان عم فرج هذا ؟ من كان هذا الرجل الذي حال بينهم وبين تخويف أطفالهم بالشياطين والعفاريت حتى يكفوا عن البكاء ويهجعوا إلى مراقدهم صامتين . . ليس في الحارة من يعرف سوى أنه كان شحاذا فقيرا على باب الكريم . . وأنه كان يعيش في خص مهجور وسط الخرابة . . وليس له مهنة . . وإنما يأكل من فضلة خير المحسنين ومايعطيه له بعضهم مما أعطاهم الله . . .

ولكن من أين جاء ؟ ومن هم أهله ؟ وما هي سيرته ؟ ان أحدا لم يحاول أن يسأله هذه الأسئلة وهو على قيد الحياة . . كان يكفي أن يحضر عم فرج أطفالهم إلى أبواب منازلهم فينال مافيه القسمة . .

غير أن أطفال الحارة كانوا يعرفون عن تاريخ عم فرج أكثر من

ذلك بكثير . . على الأقل كان كلهم يعرف من هو والده ، ومن هى أمه وما هى سيرته إلى يومنا الحاضر ، ثم أنهم كانوا يعرفون أخته .. وحين جاء الليل بعد اكتشافهم وفاته فى البدرون، تجمعوا على الرصيف المقابل للخرابة يرقبون مجيئها إلى الخص . . .

فماذا كان الأطفال يعرفون عن عم فرج ؟؟

أن الأطفال كانوا يعرفون ، أن عم فرج ابن ملك من الملوك الذين يعيشون فى الجبال البعيدة .. وأنه فى ذات يوم، اختلف مع والده الملك الذى أراد أن يزوجه من ابنة وزيره غصباً عنه .. غير أنه لم يقبل . . إذ كان يحب ابنة عمه ويكره ابنه الوزير .. فلما عصى طاعة والده كاد له الوزير كيدا كبيراً عند أبيه، حتى سجنوه داخل الجب وصفدوا يديه وقدميه بالأغلال لكى لا يهرب .. ثم أن عم فرج كانت له أخت من الجان، تحبه وترعاه، فلم تطق أن يبقى فى الجب .. ودبرت له أمر الهرب . . .

وفى ليلة مقمرة جاءته أخته وحفرت له حفرة تحت « الجب » ليخرج منها ويهرب ، وبعد أن هرب ظل يسير ويسير ليالى وأيام حتى وصل إلى شاطىء النيل عند الجبال . وهناك وجد أخته تنتظره ومعها مركب مصنوع من الذهب، ومفروش بالسجاجيد ، وفيها زاد وزواد يكفى سنين ..

وركب عم فرج المركب،وكانت مجاديفه مصنوعة من الفضة اللامعة . . وركب معه عبد مارد، كلفته أخته بأن يذهب معه ليحرسه، ويجدف له إذا تعب .فلما تعب، أخذ العبد يجدف له،والمركب تسير بسرعة مع الريح . . وبعد شهور ، خرجوا من النيل، فلم يشعروا إلا وهم فى المحيط الواسع

الكبير .. وفى المحيط قابلهم غول البحر بفمه الذى يبلع مدينة . وكان الغول سيأكلهم ويأكل المركب، ولكن أخته الجنية صعدت من داخل البحر، وأنقذتهم من الغول .. ثم انهم فى ذات يوم، حطوا رحالهم على شاطىء البحر الآخر فى بلاد كلها سباع ونمور وأهلها يركبون الأفيال وكانت هذه هى بلاد العبد المارد ، الذى ترك عم فرج وحده ، وذهب ليزور أهله .. ودخل عم فرج مغارة لينام فيها .

ولما أصبح الصباح، صحى عم فرج فوجد بجانبه سنارة وسبع سمكات وورقة مكتوب عليها « يا واجد هذه السمكات لا تأكلها .. وإذا أكلتها كان مصيرك الموت » . . فخاف على نفسه ورجع إلى القارب ولم ينتظر عودة العبد المارد .. وركب المركب فطلعت تسير « بلد تشيله وبلد تحطه» حتى رأى جزيرة على بعد فاتجه إليها . . .

وكانت الجزيرة خالية لا يسكنها إنس ولا جان ، وفيها قصر كبير مهجور له حديقة واسعة وفى وسطها فسقية كبيرة .. فلما اقترب عم فرج من الفسقية وكان عطشانا ويريد أن يشرب ، إذا أمامه سبع سمكات تتحرك وتنط وتنزل على الأرض وتأمره ألا يشرب ... ونظر عم فرج إلى السمكات فرآها تقف كما يقف الناس، ونصفها سمك والنصف الآخر سبع حوريات جميلات من حوريات الجنة . . فأراد أن يهرب ويجرى لكنهم منعوه وأمسكوه ودخلوا به إلى القصر المهجور ..

وعند هذا الحد من القصة، كانت حواديت عم فرج قد توقفت قبل أن يموت .. ومن أجل هذا فرح الأطفال حين ظنوه نائما فى البدرون ولكنهم وجدوه ميتا ؟!

* * *

وكذلك كان الأطفال يعرفون أصل عم فرج وفصله ومن أين جاء .. بل أنهم كانوا يعرفون إلى أين يذهب حين يختفى عن الحارة فلا يقولون لآبائهم ولأمهاتهم شيئاً عن سره . . حتى إذا رأوه قد عاد إلى الخص ، تدافعوا نحوه، ليجلس معهم ويحكى لهم .. كان فى كل مرة تأتى إليه أخته الجنية بعد أن تشتاق له فتأخذه، لكى يعيش معها تحت الأرض .. وهناك يقيم فى قصرها .. يأكل أكل الملوك ويشرب شرب الملوك وينام نوم الملوك ...

ثم يتابع عم فرج حواديته من جديد ..

من أجل هذا .. خرج الأطفال فى ليلة وفاة عم فرج، وتجمعوا على الرصيف المقابل للخرابة، فى انتظار حضور أخته إلى الخص .. ولكنها لم تحضر !! بل أصبح الصباح فإذا الخص قد اختفى من الوجود !! ورغم هذا فلم ينقطع الأطفال عن السهر أمام الخرابة وكان كل منهم يحكى للآخرين عن « الجنية » .. وفى كل ليلة يصرخ الآباء فى أطفالهم، فها هو عم فرج قد مات !! وها هو الخص قد زال !! وها هى الجنية لم يظهر لها أثر !! ومع ذلك لم يبارح الأطفال جلستهم فى كل ليلة عند الرصيف المقابل للخرابة ..

وقالت أم لإبنها وكانت تحاول منعه من السهر مع بقية الأطفال أمام الخص لانتظار ظهور « الجنية »

— « يا إبنى مافيش فايدة .. ما تصدقش الأولاد التانيين .. دا كان بيروح عند أسياده أصحاب الخرابة فى السرايا بتاعتهم علشان يدوه هدمة قديمة ولا يأكل عندهم لقمة نضيفة .. »

ولكن الطفل خرج وسهر مع الأطفال .. وقال لهم ما قالته أمه

فلم يصدقوه. فكلهم كان يؤكد أن عم فرج كان يذهب عند أخته ويقيم فى قصرها مع « الجان » تحت الأرض .. يأكل أكل الملوك ويشرب شرب الملوك .. وينام نوم الملوك ..

وشيئا فشيئا، انصرف الأطفال عن الجلوس أمام الخرابة .. وأقيم مكان الخص عمارة كبيرة .. وتغيرت معالم الحى جميعا .. وانقضت سنوات وسنوات .. لكن حكايات عم فرج ظلت راسخة فى أذهاننا ونحن صبية .. وعاشت معنا فكنا نرددها ونحن كبار .. بل أن بعضنا لا يزال حتى الآن يحكيها لأطفاله ..

أما أنا فقد فضلت أن أكتبها لأذكر بها قصة الرجل الذى مات فترك فى حياتى .. هذا الأثر .

انتهت

سرقة ونصب واحتيال



كان من عادة « محمد الحاوى » أن يسكر على دفعات . . يدخل البار وقد علق فوق كتفه حقيبة القماش التى تحوى « عدة الشغل » وما يحيطها من أسرار، غالباً ما أثارت عجب المعلم جريس، خاصة بعد الفراغ من الكأس الرابع، وبداية «الدوخة» التى كانت تستغرق عنده ليلا طويلا ويكون « محمد الحاوى » قد دفع القرشين « لمانولى » وأخذ فى كفه بعض حبات الترمس، وهم بالخروج . . عند ذلك يستوقفه المعلم جريس ويطالبه بأن يفتح كفه فإذا بها خالية من الترمس .

وترتفع حواجب المعلم جريس الكثة ، وينظر بإعجاب فيما حوله ويلوح براحتيه العريضتين للعيون المسلطة على الحاوى من كافة أركان البار الضيق . ويضحك بعضهم ، ويحملق بعضهم فى شغف وينصرف البعض لإفراغ ما تبقى فى الكؤوس داخل بطونهم . . ثم تمتد يد الحاوى إلى « الصديرى القطنى» اللامع، ويخرج من داخل جيوبه بعض أوراق اللعب ، ويفردها فى حركة سريعة فوق ذراعه الأيمن ، ويدور على «المتحلقين» ليختار كل منهم ورقته .

وينتهى به المطاف إلى المعلم جريس فيأخذ ورقة من الأوراق العليا فى نهاية الصف عند طرف الساعد . . ويلتفت وراءه ويديرها ليطلع بقية الجالسين عليها، ثم يضعها ثانية فى وسط الأوراق .

وفى لمح البصر يكون « محمد الحاوى » قد طوى الأوراق من فوق ساعده، وأخذ يقلبها فى سرعة، بين أصابعه الرفيعة الطويلة . . وتسمع

للأوراق «طرقعة» بينما عيون «محمد الحاوى» تدور فاحصة فى الجالسين نه يبحث عن صاحب الورقة الأولى . .

جلا . . جلا . . جلا . . جلا . .

وإذا «بالسبعة سباتى» تتصاعد من وسط الأوراق . . إنها الورقة التى اختارها «حسن زريق» عامل المصعد فى شركة التبريدات وأحد الزبائن المزمنين على البار .. ويلتفت الجميع إلى حسن فيبتسم قريرا . . نعم . . كانت هى نفس الورقة التى اختارها «أبو على» . .

ويتابع الحاوى إخراج الأوراق فلا يخطئ، حتى إذا حل الدور على ورقة المعلم جريس، توقف «محمد الحاوى» قليلا، وطلب إلى المعلم اختيار ورقة أخرى، وكأنه قد عجز نهائيا عن كشف الورقة التى اختارها المعلم كبقية الأوراق . . وهنا يرفض المعلم، ويصمم على ضرورة إخراج ورقته الأولى .. وكان المعلم جريس قد اختار «الاس الديناري» .. ومن تحت حواجبه الكثه تلمح فى عيون المعلم بريقاً عجيباً . . هو مزيج من الخبث والسرور .

— «طلع الورقة . . طلع يامحمد .. طلع ياشاطر .. حتعمل على أنا كان حاوى » .. ولكن هذا التحدى السافر، لا يثير فى نفس الحاوى أقل دافع إلى النصر، فتراه يقول فى تردد ظاهر . . وهو عد إليه ساعده « بالكرت »

— « اختار .. شوف واحدة تانية .. إلعب غيرها » .

ويهز المعلم رأسه فى عناد ويرفض أن يتحول عن اختياره . .

— « طلع . . طلع الورقة بتاعتى . . وإذا ماعرفتهاش . ماتبقاش حاوى »

ورغم ذلك يعجز محمد الحاوى أسفاء ويكون قد أعاد ترتيب الورق بين أصابعه مرات ومرات، ولا يخرج الورقة المطلوبة للمعلم جريس، رغم كثرة وتكرار المحاولات . . وينبعث من أفواه السكارى نغم حبيب إلى نفس المعلم جريس ..

لقد انتصر على الحاوى . . .

وفى كل ليلة كان المعلم جريس ينتصر، وفى كل ليلة كان محمد الحاوى يجرع كأساً إضافياً على حساب المعلم فيه ترضية وفيه إشفاق .. ولكنه يرفض أن يتناول الكأس وهو جالس، ويفضل تناوله دفعة واحدة على البار.

— « مزاجه كده .. كل واحد ومزاجه . . حرية .. حد شريكه » وهكذا كان المعلم يبرر الموقف دائماً . .

ثم يغادر محمد الحاوى البار إلى عودة آخر الليل، أو إلى بار آخر لا عودة منه .

— « على حسب التساهيل . . والله إن رزقنا هنا بقى كويس .. وإن رزقنا هناك .. إيه المانع !؟ » ولم يحدث ليلة أن غادر محمد الحاوى البار بدون أن يردد هذه الحكمة ..

وجاءه المعلم جريس بالكأس المعتاد . . وقبض الحاوى على حفنة الترمس المكومة فى طبق القهوة الصغير ، وأخذها فى كفه، وهم بالخروج وبجوار الباب، اصطدم الحاوى بصندوق الورق الذى تتدلى منه عينات الجوارب، وكان محفوظ « الجعفرى » ممسكا به فى يده تأهبا لعرضه على أحد السكارى . ولم يحاول محمد الحاوى أن يلتفت ليعتذر لمحفوظ أو يودع أحدا من الجالسين، أو حتى يشكر المعلم جريس ..

وبعد أن غادر الحاوى البار، خيم عليه سكون رهيب كان يقطعه من آن

لآخر، ضربات الملعقة التي يقلبها حسين الجرسون في أوعاء الثلج، والرشفه العاليه التي يحتسى بها فرحات أفندى جرعاته المتقطعه من البيرة، وكان للبار بابان يطلان على الشارع. وكان من أشهى المناظر التي تطيف بعيني المعلم جريس ، أن يرى المارة في الشارع وهم يسيرون إلى منازلهم بعد أن أغلقت الحوانيت وكادت الحركة تهدأ .. فيراهم يمرون بالباب الأول .. واحد بمفرده.. أو واحد ومعه زوجته .. أو امرأة وبجوارها طفلها . . ثم تنتقل حدقتا المعلم جريس إلى الباب الثاني ، في انتظار عبور الرجل الذى كان يحمل الشمسية في الليل، والمرأة التي كانت تضع رأسها في داخل حقيبتها .. وهذا الغلام الذى كان يبكى وعيونه تضحك .

ويروح المعلم جريس يناجى لحظته .. هذا الباب جميل الموقع .. إنه كالقطار تماما .. يسير به في شارع مزدحم لا تنقطع منه حركة . . ولكنه قطار لا يقف أبداً .. وبعد الكأس السابع كان يخيل للمعلم جريس أن القطار بدأ يهدىء من سيره ، ودخل في منطقة عديمة السكان إذ نادرا ما يمر أحد بالشارع الآن ..

ويجيل المعلم جريس البصر فيمن حوله داخل البار . كان « حسن زريق » عامل المصعد في شركة التبريدات ، يلف معصمه بساعة ذهبية أنيقة . . إن هؤلاء « السود » لا تنقصهم « المدنية » . . فحسن زريق السوداني، يلبس ساعة بسوار مذهب وينتعل صندلا لبنيا، ويفرق شعره ويسكر .. « روم وبراندى وأوزو كان » .. لافرق بينه وبين الخواجات في شيء !!

وكانت هذه الفكرة من أمتع الخواطر التي علقت بذهن المعلم جريس في الأيام الأخيرة . . إن السودانيين والخواجات أكثر قابلية للتمدن والفرنجة منا نحن المصريين ..

ـــ والله بصحيح . آل ومكناش عاوزين نديهم الاستقلال ! ! هما أأقل منا فى إيه!!إذا كان عندهم فى بلادهم انجليز!! طب ما حنا كان عندنا الانجليز برضه .. ياعم سيبك . أنا ما افهمش الكلام ده .

وظل المعلم جريس يسعى إلى التعرف بحسن زريق . . وكان لا بد للمعلم أن يشرب الكأس الثامن . ختام « الدوخة الأصلية اللى بتصهلل للصبح » .. وفجأة نطق المعلم فى ألفه عجيبة .

ـــ الساعة كام يا أبو على ؟ ! » فرد حسن وكأنه هو الآخر يعرفه من أجيال .

ـــ قول حداشر يا معلم جريس » .. فتعجب المعلم .

ـــ أنا اللى أأقول ياسى حسن!! ساعتك أنت كام ؟؟».. فرد حسن فى أدب جم .

ـــ لا مؤاخذة .. أصلها مكسورة .

ـــ مكسورة بصحيح..ولا ما عندكش ساعة!! .. واستغرب حسن كيف أستطاع هـذا الرجل أن يعرف أنه باع ساعته . . ووجد نفسه يفتح له مغاليق قلبه .

ـــ ما أخبيش عليك .. أنا بعتها الجمعة اللى فاتت .

قال المعلم فى هدوء .

ـــ تتعوض يا إبنى .

واكتفى المعلم جريس بذلك . ونادى حسين الجرسون وسأله عن الساعة

ـــ لسة بدرى قوى !! عشرة ونص بس !!» قال المعلم فرحاً .

ـــ بس !! طب هات كاس كمان .

وعلق الجرسون على هذا الطلب منبها وهو يجس النبض .

ـــ بقينا فى الثامن قوام يا معلم؟! .. وأجاب المعلم ساخراً .

ـــ الحساب يجمع ياسى حسين .

وجاء الجرسون بالكأس، ووضعه أمام المعلم جريس، ثم رجع ثانية إلى البار ليحضر الترمس . وعاد ومعه الطبق الصغير مليئا بالحبات الصفراء ، .. ومرت لحظة قبل أن يتنبه المعلم جريس أن حسين الجرسون لازال ممسكا بطبق الترمس فى يده .

ـــ إيه يا حسين !! أجاب حسين دهشا هو الآخر .

ـــ فين الكاس يا معلم ! ! أنا جايبه لك دلوقت ! ! لحقت تشربه! فرد المعلم .

ـــ هات واحد غيره وناول الطبق لأبو على ! !

وعند ذلك فقط ، تنبه حسن زريق إلى حقيقة ماحدث؟.. كان المعلم يحييه بكأس .. وكان من الطبيعى أن لا يرفض مثل هذه التحية من رجل فى سن والده .. رجل كريم . « مروءاتلى» .. ثم ما الداعى إلى رفضها وهو يشرب شكك منذ إستغنائهم عنه فى الشركة .. ولما أحضر الجرسون الكأس الثانى رأى حسن يجلس على مائدة مع المعلم ويبادله الحديث .

ـــ مبسوط فى الشركة يا أبو على ؟!.

ـــ شركة مين !.

ـــ التبريدات .

ـــ تبريدات إيه ياعم . دا أنا متلطع فى الشارع بقى لى شهور .

ـــ ليه ؟! عملت حاجة ؟ ؟

ـــ وفر .. وفرونا .. كله بيوفر دلوقت .. ماتعرفش ليه .. ربك يعدلها » .. ورشف نصف الكاس تقريبا .

قال المعلم يحاول متابعة الحديث .

ـــ تعرف يا حسن يا ابنى إنت لو كنت فى السودان . . كنت لقيت شغل هوا .

وابتسم حسن لهذه الفكرة وأجابه سائلا .

ـــ وأنا إيه اللى كان حيوديني السودان يا عم !! علشان إيه يعنى ؟؟

ـــ إنت مش سودانى يا حسن !؟!

ـــ سودانى ومحمص ، أنا من قنا يا معلم .

ـــ من قنا !! تبقى من هنا . والله أنا باحسبك من السودان .

ـــ وماله .. هو فيه فرق ؟

ـــ اللون بس . دا أنا عندى فكرة أنهم زى الخواجات ومتمدنين

وفى تلك اللحظة، بالذات تنبه زبائن البار إلى دخول محمد الحاوى ولكنهم تنبهوا بفزع لأن الحاوى كان متبوعا بعسكرى . ووقف العسكرى والحاوى أمام مائدة المعلم . . وأخرج العسكرى من جيبه ساعة عتيقة بالية .. وقال العسكرى باصرار وهو يواجه بالحاوى .

ـــ هو دا المعلم !! هو ده !! دى ساعتك يا معلم ؟

وتلعثم المعلم جريس،وكان على وشك أن ينكر، لولا أن تلفت حوله فصدمته عيون حامد القرجى،وكان يعرف عن هذه الساعة الشىء الكثير وأجاب المعلم فى إستسلام .

ـــ أيوه ساعتى .. فيه حاجة !! فيها إيه ؟

وهنا رفع العسكرى يده الغليظة من فوق كتف الحاوى ، واستدار وغادر البار فى مشية بوليسية، والكل ينظر إليه دهشاً .. واختفى العسكرى من الباب، والعيون كلها تتجه نحو وجه الحاوى وكان باهتاً يحاكى وجوه الموتى . . وأجلسه المعلم جريس أمامه على المائدة مع حسن، ليباعد بينه وبين العيون، وراح يسأله فى لهفة وكأنه يسامره ...

— إيه يا محمد .. إنت عملت إيه ! !

— وحياتك ولا . . دخلت السلسور (الاكسلسيور) ولعبت لشوية بهوات ومعاهم واحد باشا من بتوع زمان . . وطلعت الساعة ووريتها لهم .. الباشا كان حيشتريها وبعدين واحد من البهوات قال دى لازم مسروقه .. دى مافيش منها دلوقت ولافى سويسرا ..دى أنتيكه .. القصد ماصدقونيش .. قلت بتاعتى يا عالم . ماصدقونيش برضك.. أصلهم كانوا سكرانين كلهم . . كانوا بيشربوا ويسكى من الأصلى . . جابوا العسكرى .. وجه العسكرى يسألك.

وهز المعلم رأسه فى هدوء وجرع بقية الكأس . .

— لكن دى ساعتى يا محمد !؟ خدتها منى إذاى ! ؟

فرد عليه حسن وكان ينصت فى إهتمام ..

— عيب يامعلم .. دا حاوى . .

قال المعلم وقد تقطب جبينه وانعقدت حواجبه الكثه .. قال غاضبا وهو يقف ويهم بمغادرة البار ..

— هيه حصلت للسرقة كمان ..

ومشى وراءه الحاوى . .

ـ ماتقولشي كده يامعلم !!

ولكن المعلم جريس رفض أن يرد وتابع سيره والحاوي يطيب خاطره

ـ ودي فيها حاجه !! .. أنا كنت حا أجيبها لك تاني.

وتوقف المعلم جريس واستدار ليرد عليه.

ـ يعني تسرقها مرة تانية كمان ؟ !

فقال الحاوى وهو يفتح يديه مستنكراً

ـ ودى تبقى سرقة ياعالم ؟ !

وكان المعلم ينصرف إلى خارج الباب . .

ـ سرقة ونصب واحتيال . .

وتقدم الحاوى يستعطفه ، فقال فى لهجة غاضبة

ـ ارجع من ورايا أحسن لك ياحاوى .. ارجع من ورايه ..

ووقف محمد الحاوى فى وسط البار يرقب المعلم وقد أخرج الساعة عند الباب يتطلع فى عقاربها ويضعها على أذنه ليتأكد من أنها لم تقف.

ـ ماتخافش .. لسه دايره .. ماتخافش ..

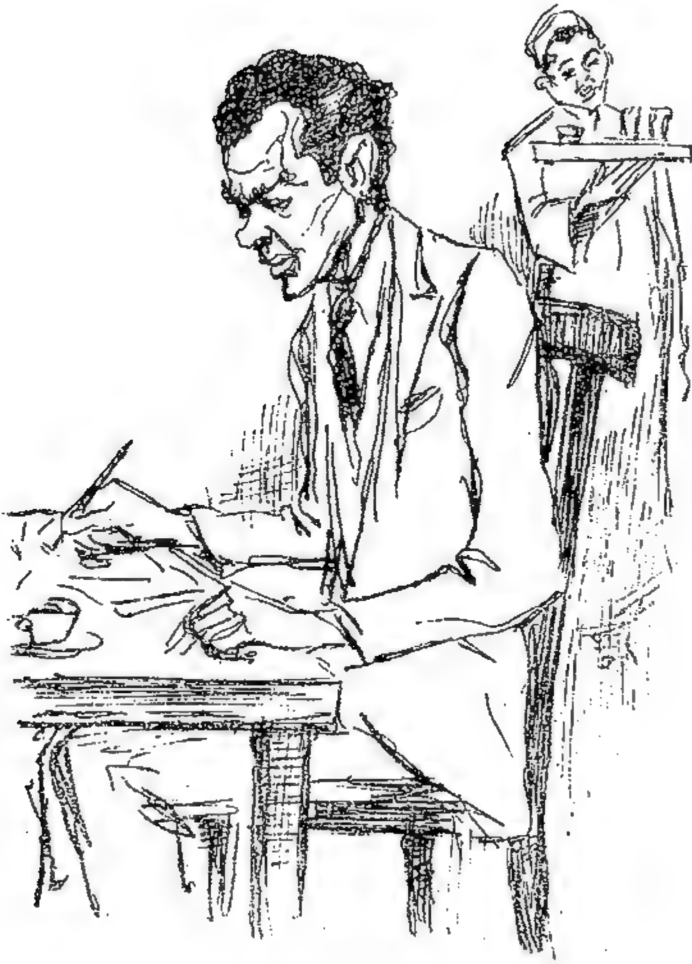
ـ ما كانت دايره م الصبح . . .

وضحك كل من فى البار .. إلا محمد الحاوى فقد انزوى يطلب كأساً من الخواجه . . ويهز رأسه على صداقته الضائعة للمعلم جريس . . بينما خرج المعلم جريس يضرب كفاً على كف وهو يضحك . .

ـ حاوى !! حا عمل إيه ؟! واحد حاوى .. شغلته كده .. سرقة ونصب واحتيال ..

« تمت »

مافيش أُدب



جميع زبائن المقهى يتحاملون على الأستاذ سلامة . وكلهم يستنكر مسلكه بصورة تنفر أغلب الناس منه . فأحمد عثمان الترزى، هو وزميله حسنين،لايعجبهما من الأستاذ سلامة، هذا الغرور الذى يبديه دائما كلما دخل المقهى، ورآهما يلعبان الطاولة، وقت الظهر والمحل مغلق،وقدتناولا الغذاء وليس من سبيل لقطع الوقت حتى يفتح المحل أبوابه مرة ثانية فى الساعة الرابعة . . وكذلك كان زكى أفندى غبريال لايطيق النظر إلى الأستاذ سلامة، لأنه على مايصفه دائما كلما تحدث أحد أمامه عنه. « نا كش شعره ومربى ضوافره ولابس مبهدل .. عامل أديب وناقص بريل . . »

أما جبر خلف بائع السجاير، وصاحب الكشك الذى يجاور المقهى فكان لايعجبه ولا يرضيه فى الأستاذ سلامة « الفقر والفنذحة » .

وفيما عدا هؤلاء فان الأستاذ سلامة لم يكن يهمه كثيراً أن يرضى أحد، عن شكله أو خلقته أو هيئته أو مسلكه أو أى شىء يرتد إلى شخصه ومظهره بخير أو شر . . فكل ما كان يهم الأستاذ من الناس ، أن يرضوا عن إنتاجه . .

والأستاذ سلامة قد تخطى الثلاثين من عمره الآن ، عاش وسيظل يعيش، حتى ولو بلغ الخمسين أو صار كهلا بعصى ، ينكر على نفسه كل رعاية واجبة، إلى أن يعترف له الناس بما هو أهم من وجوده!!، ولم يكن عند الأستاذ سلامة ماهو أهم من وجوده.. غير إنتاجه الأدبى .

ويتلفت الأستاذ سلامة فيما حوله، من الجماد والحيوان، وفيمن حوله

من الإنسان، فلا يجد من يستحق أن يعنى بصداقته أو معرفته أو الجلوس إليه « مافيش حد فيهم يستأهل ! ؟ دول شوية أغبيه ! ! حيوانات ! ! »

ورغم ذلك فإن الأستاذ سلامة كان يخص برعايته مخلوقاً واحداً من بين هذه المخلوقات كلها، فهو يستطيب مجالسة الخواجه بشرى لأن الخواجه صاحب المقهى، كان على شيء من الثقافة والمعرفة، وكثيرا ما رآه يقرأ الكتب بالإضافة إلى إلتهامه المجلات والجرائد. وكان الخواجه من جانبه، يبادل الأستاذ سلامة التقدير، لأنه هو نفسه كان يرغب ويتمنى لو أتاحت له الأيام الفرصة، ليكون كاتباً أديباً أو صاحب موهبة فنية من أي نوع كان. وكان الخواجه ينظر إلى الأستاذ سلامة نظرته إلى العبقري المغمور، الذي سيظل يكافح ويناضل، حتى يصل إلى قمة المجـــد شأنه شأن كافة العباقرة، الذين ظهروا في جميع مراحل التاريخ، في كل البلدان كما تصورهم الكتب والسير التي تحكي عن حياتهم.

ومع أن الأستاذ سلامه كان مغروراً، وكثيرا ما احتاج إلى ثمن الطعام في الغذاء، والعشاء أيضا، إلا أنه لم يحدث أبداً، أن طلب من الأستاذ سلامه أي مشروب أو مطلوب من المقهى، بدون أن يدفع ثمنه فوراً وذلك عملا بالنشرة الملصقة بجدران المقهى ذاته، والتي تقرر على الزبائن ضرورة دفع ثمن الطلبات مقدما هذا اذا لم يكن لحفظ الكرامة، في ذلك الوسط الذي لا يحترم الأستاذ، أحدا من مخلوقاته.. وطبعا لم يكن هناك بأس أن يأخذ الأستاذ سلامه ربع جنيه أو ريال وأحيانا الشلن والنصف فرنك على سبيل السلفة، من الخواجه.. فيدفع منها الطلبات والسندوتش وخلافه.. ثم يردها يوم يتيسر.. وكان اليسر دائما يلازم العسر في

أيام الأستاذ سلامه، بدرجة جعلته لايفرق كثيراً بين أن يكون معه ثمن الطعام أو لا يكون، مادام فى يده القلم، وفى جيوبه الورق، وفى ذهنه الفكر الحاد المشتعل، وداخل النفس، نبضات الالهام وانتفاضات الوحى التى تغرقه بالعرق، وتدفعه إلى كتابة القصة وراء القصيدة وراء المقال حينما اتفق وأينما اتفق. المهم أن لاينشغل الفكر ولا تقلق النفس بغير ما يجب أن يحركهما دائماً من ومضات الخلد الخاطفة المباغته.

ويأتى الأستاذ سلامه إلى المقهى مع دخول الليل فى الصيف، وتحت أبطه نسخا من مجلات أفرنجيه قديمه، يكون قد ابتاعها من فوق الأرصفة. ويجلس فى زاويه بعيده بالمقهى، ويطلب «شاى ميزه» ثم يفرد أمامه المجلات، ويروح يقرأ وينتقى، حتى إذا مرت ساعات، يبدأ الأستاذ سلامه فى إخراج القلم وتدوين بعض أرائه .. ويظل الخواجه بشرى يرقب الجسالين من وراء «البنك» وعيونه لاتغفل عن مراقبة الأستاذ، حتى يفرغ أخيراً فى الحادية عشر تقريبا مما بين يديه، ويداخله الملل، فيضع القلم فوق المجلات فى شهقة فاجعه، ويتجه الخواجه بشرى إلى المائدة ..

— إرحم نفسك يا أستاذ بق .. كفايه الليله كده »

— أعمل إيه يا خواجه .. أصلهم طالبين منى حاجات كثيراً .

— طب أقرى لنا بق .. أقرى لنا حاجات من اللى كتبتها ..

ويجلس الخواجه بشرى على المقعد المقابل الأستاذ، فيلمح المجلات الأفرنجية، ويروح يقلب صفحاتها فى شغف وإعجاب، إلى أن ينتهى الأستاذ من تناول «الشاى السادة» الذى حرص الخواجه على أن يقدمه الأستاذ «علشان يفوق ويصحصح» .

ولا يتمنع الأستاذ طويلا وإن كان يتمنع !!

— لكن قول لى يا أستاذ؟ ! أنت بتعرف فرنساوى ولا إيه !!!

— الانجليزى بتاعى أحسن . . لكن أقرى فرنساوى كويس . .

ويأخذ الأستاذ يحكى للخواجه ، كيف تعلم فى المدارس وكيف حصل على الابتدائية بالانجليزى من مدرسة الأمريكان ، ثم كيف دخل الليسيه الفرنساوى وتعلم الفرنسيه ، والعمر الذى قطعه فى الصحافة يترجم الأخبار العربى . .

— ياسلام ! ! بقى يعنى حضرتك دلوقت بتترجم ! !

ولا يرد الأستاذ سلامه إلا بعد أن يكون قد بحث فى جيوبه جميعها عن فكة لشراء السجاير . . وحينذاك ينادى الخواجه على الجرسون لإحضار علبه من جبر خلف على حسابه . .

— وتجز برضك يا أستاذ ؟! أنا ليه مزاج الليله أشرب عربى . . هات لنا يا ابنى معدن ولا بستانى مافيش مانع . . ولما ينصرف الجرسون يجلس الأستاذ ليعيد تنظيم الأوراق التى دبجها يراعه ، ويضعها داخل إحدى المجلات ثم يروح يحادث الخواجه فى رغبة شيقة وكأنه يأكل الكلام أكلا .

— قلت لى ترجمة . . الحقيقة إن دى مش ترجمة . . دى حاجه ثانيه حاجه جديدة خالص على البلد . انت شايف المجلات اللى قدامى . . كلها عن السينما . . وأنا كنت باكتب دلوقت للسينما .

وينظر الخواجه يشرى فى إعجاب واستغراب .

— ياسلام . . ماهو على كل حال السينما أكثر حاجة فيها مكسب دلوقت

ويروح الأستاذ سلامه ، مطاوعا ريقة السيال ولسانه اللدن ، يحكى للخواجه عن السناريو الذى يعده للسينما ، مؤكدا أنه لا ينشد المال والثراء بقدر ما ينشد إنقاذ الفلم المصرى ، من الهاويه التى يتردى فى أحضانها . .

وهو يفعل ذلك بناءاً على طلبهم .. أما من هم!! فإن الخواجه لايحاول أن يسأل؛ وإن كان ربما استنتج، أنهم لا بد أن يكونوا من أصحاب الصنعة .

وعلى منتصف الليل تقريبا ، يتلفت الجالسون من الزبائن حولهم فيجدوا الجرسون قد تأهب لإغلاق الأبواب ورفع الكراسى ، بينما يكون الخواجه جالسا فى شبه ذهول، ينصت إلى الأستاذ وهو يقرأ عليه احداث السيناريو . . ويحتج الزبائن لمحاولة الجرسون التشطيب . .

— ياعم لسه بدرى . . طب روح قوم الخواجه وصاحبك . .

ويجيبهم الجرسون .

— صاحبنا ماسرح بالخواجه من زمان .

ولكن الجرسون يضطر إلى الابقاء على الكراسى المشغولة ، ثم يتجه نحو الخواجه لتصفية حساب القهوة عن وردية المساء . . أما الأستاذ وهو الحريص دائما على معاش الناس، فإنه يرفض متابعه القراءه، رغم الحاح الخواجه،. ويصمم على القيام. مادام الموعد المحدد لإغلاق المقهى قد حل

— معلش ياخواجه . نوقف عند « الشوط » ده ، ونكمل السناريو بكره أصل أنا كان لسه قدامى فى القصة حوداث كتير .

ويجمع الأستاذ أوراقه ويحاول أن يعدل من هندامه فيقف أمام المرآة التى تتوسط المقهى ليسوى شعره، ثم يطرح تحية المساء على الخواجه وعبده الجرسون وهو واقف بجواره على البنك لتسليم الفيش . ويحيه الخواجه بشرى مودعا ..

— ميه مسه يا حبيبى ...شرفت .. ماتنساش بكره .. وربنا يسهل وتخلص القصه بخاتمة كويسه ..

ويهز الأستاذ رأسه فى إمتنان، ويغادر المقهى فى إعتداد وخيلاء

مشيعا بنظرات الاستخفاف من كافة الموجودين .. ولا يطيق أحمد عثمان الترزى وهو يتم بقية الدرس ، مع حسنين، هذا المنظر، فيشير من وراء النافذة التى يجلسان أمامها إشارة مفهومة لجبر خلف، وهو يغلق كشك السجاير ..

— بقت حلقات .. والبقيه . غداً . .

ولكن الأستاذ سلامة، وإن سمع هذا التعليق من جبر خلف ، لا يمكن أن تطاوعه قدماه على الوقوف أو الإلتفات خلفه، حتى لا يشعروا بأنه كان يحس بوجودهم . . إنما يظل الأستاذ يفكر طويلا وسريعا فى تدبير وقفة مناسبة على رأس الشارع . . هناك أمام « القطاطرى » أو بجوار « البقال » . . فاذا ما أهل الخواجه بعد إغلاقه المقهى، وجاء وحده إلى رأس الشارع، أخذ منه الأستاذ عشرة أو خمسة عشر قرشا، على سبيل السلفه، يستعين بها على المواصلات لزيارة الأستوديو فى الصباح وعرض الجزء الذى أتمه من السناريو على المخرج . .

وفى ظهر اليوم التالى، يحضر الأستاذ سلامة إلى المقهى فى مظهر آخر ويجلس حليق الذقن ، نظيف الرداء قد سوى شعره اللامع المجعد. ويتناول قدح القهوة وأمامه « البويجى » يلمع له الحذاء فى رويه وإتقان حتى إذا فرغ، أخرج الأستاذ من جيبه جنيها كاملا، وأعطاه للجرسون ليحاسب « البويجى » ويأخذ ثمن الطلب ويرد له الباقى .. ويظل يسأل عن الخواجه رغم علمه بأن الخواجه لا يحضر إلى القهوة إلا فى الرابعة مساءاً .

— « ياعبده .. خلى الورق بتاعى عندك .. ولما يجى الخواجه قول له يستنانى .. »

ويترك الأستاذ سلامه المقهى قاصداً الغذاء فى مطعم نظيف، ولا ينسى

وهو يتأهب للسير أن يخرج من جيبه العلبة « الكرافن » ليشعل منه واحدة ، ينفث دخانها فى الجهة المقابلة « للكشك » حيث يقف جبر خلف يحلق فى ذهول .. ويلتفت الأستاذ إلى القهوة، فى إحتقار مرير للمخلوقات التى تتابع بنظراتها حركاته الغريبة .

فاذا ابتعد عن أنظارهم، أنهالت التعليقات من كل جانب، فيقول جبر خلف موجها كلامه إلى زكى أفندى غبريال .

— « تلاقيه ضارب الست والدته علقة، وواخد منها القرشين اللى محوشاهم !! »

فيجيبه زكى افندى .

— « المبهدل طول عمره مبهدل .. بكره يرجع ينكش شعره تانى ويربى دقنه ويربل ذى عوايده .. »

فاذا جاء « الترزية » حسنين وأحمد عثمان، وجلسا يلعبان الطاولة حتى يفتح المحل الساعة الرابعة، أسرع جبر خلف يحدثهما عن الأستاذ سلامة وشاهده عبده الجرسون .

— أيوه أمال .. أنا فكيت له جنيه .. وباين فى جيبه ورق صحيح .

— وبيشرب كرافن .. بسبعتاشر قرش ..

وينعقد الحديث حول الأستاذ سلامة وحياته المتناقضة وتحولاته السريعة، وما يصيبه أحيانا من ثراء مباغت لايدوم أكثر من أيام.. ثم هذا الغرور الذى يتصف به .. وماذا يفعل أثناء غيبته عن المقهى ؟ وأين يذهب !؟ وما هى مهنته ! ؟ وهل هو صحفى أو أديب أو مترجم ! أو أنه يشتغل فى السينما !!

وتدور الأسئلة والتعليقات فى كل مدار إلى أن يحضر الخواجه بشرى فيقطع عليهم الشك باليقين .. فالأستاذ سلامة على مايقولون وبعكس مايقولون أيضا !! الأستاذ سلامة أديب ومترجم وصحفى ومفكر وسينمائى روائى ممتاز .. لكنه ... آه ...

وهذا مايعتقده الخواجه عنه ـ عبقرى أكثر من اللازم ، لأن له أفكار وآراء وروايات غريبة لا تتفق مع مايكتبه الآخرين .. ويؤكد الخواجه فى إصرار وحكمة ..

ـ يا سلام ! له أفكار عجيبة . مؤلف كويس جداً . عنده حاجات كثيرة فى دماغه .

ـ أمال مبهدل فى نفسه كده ليه !؟

ـ ومعذور قوى زيادة عن اللزوم ؟ !

ـ معذور يا عالم . معذور ياناس . واحد زيه لو كان فى بلد ثانية كانوا يقدروه تمام .

وهكذا بلغ إيمان الخواجة بشرى بالأستاذ سلامة . لكنه حين يتركهم تنهال التعليقات .

ـ الأستاذ لف الخواجة .

ـ وأكل بعقله حلاوة .

فإذا ارتد الخواجة إلى البنك وجلس يخرج « الفيش » لوردية الليل سلمه عبده الجرسون مع نقود الصباح ، الأوراق والمجلات التى أودعها لديه الأستاذ سلامة .

ـ دول بتوع الأستاذ .. وهو راجع ثانى المغرب .

وينتقل الخواجة بخياله إلى الأستديو فى الصباح ، فيرى الأستاذ وهو

يقف مع المخرج يقرأ له كما كان يفعل بالأمس،ذلك المشهد الذى يفاجىء فيه الزوج زوجته، ومعها عشيقها فى مخدعها . لقد قال الأستاذ وهو يقرأه له، أنه مشهد عنيف، لن توافق عليه الرقابة . لكنه سيعرضه على المخرج قبل أن يجرى أى تعديل فى السناريو . ويتمتم الخواجه متأملا سابحاً ،

« يا ترى عمل إيه مع المخرج . أنا برضك شايف أن الحتة دى صعب شوية ! ! »

وكان الجرسون يقف بجوار البنك فسمع الخواجة وهو يتكلم بهذا الصوت الواضح فأجابه متمما .

ــ حتة صعب قوى . والناس بتوعها وحشين خالص .

قال الخواجة دهشاً :

ــ إنت معايا إنت راخر يا عبده .

فرد عليه الجرسون .

ــ معاك قوى يا خواجة . وهية دى حتة بتاعت قهاوى كويسة .

فاستفسر الخواجة بشرى .

ــ إنت بتتكلم على إيه ؟!

ــ الحتة اللى إحنا فيها .

ذلك أن الجرسون كان يلاحظ بمرور الأيام ، زيادة الكساد الذى يلاقيه المقهى، فى هذا الجحر المنزوى الذى استأجره الخواجة . ولكن الخواجه صرفه فى هدوء واستسلام ، حتى لا يذكره بالمقهى وحالها ويخرجه بخياله السارح من «الشوط» العنيف .

* * *

وعاد الأستاذ سلامه مع الليل وفى يده بعض المجلات الأفرنجية .
ولم يدقق الخواجه طويلا فى هذا التغيير، الذى أدخله الأستاذ على مظهره وإنما اكتفى بالتعليق على الحذاء الجديد الذى كان يلمع فى قدميه ..

— مبروك على الأرض يا أستاذ ..

— الله يبارك فيه ..

وجلس الأستاذ يحكى للخواجه كيف حضر إلى المقهى فى الظهر ولم يجده ، وكيف قام بتلميع الحذاء القديم ولم يكن يفكر فى شراء هذا الحذاء . . ثم كيف اشترى هذا الحذاء فجأة . . ونادى على الجرسون وهو يتابع الحديث ويستشير الخواجه فى إعطاء الحذاء القديم لعبده ..

« اسمع يا عبده . . عارف محل أحذية الكمال . . تلاقى هناك جزمه بتاعتى . . هاتها وخدها إلبسها . . حتطلع قدك تمام . .

ونظر عبده لأقدام الأستاذ فوجده يلبس حذاءاً جديداً . .

« الجزمة اللى حضرتك دهنتها الضهر »

« أيوه .. مقاسك تمام . . روح هاتها . . »

« ربنا يخليك يا أستاذ . . ربنا ما يحرمناش منك . . »

أما الخواجه فقد تأثر أيما تأثر ، وراح يربت على كتف الأستاذ سلامة فى رضى واعتزاز . .

« ما فيش أحسن من الإنسانية . . ما فيش أحسن من الإنسانية أبدا.. »

وحين أوغل المساء، لم يحاول الأستاذ سلامه أن يجلس فى ركنه المعتاد ولم يحاول أن يكتب شيئاً !! وكان الأستاذ سلامة فى حاجة إلى أن يسرى عن نفسه .

ونصحه الخواجه أن يذهب إلى السينما . . غير أنه لم يقبل . . وعاد فنصحه بأن يأخذ « كاسين براندى » ولكنه لم يقبل أيضاً . . وظل جالسا على الكرسى عند مدخل القهوة ، يتطلع فى شرود إلى صخب الشارع وضجيج المارة مما لم يكن يحس له بوجود من قبل . .

— ما تقول يا أستاذ سلامة . . إيه السبب ! !

وفى هدوء ، جاس يحدث الخواجة بدخيلة قلبه . .

لقد عاد أمس مساءاً إلى البيت فوجد شقيقه الأكبر فى انتظاره . ودار بينهما نقاش طويل حول مصيره ومستقبله . إن الشقيق الأكبر وهو يشتغل مديراً للمستخدمين فى إحدى الشركات الكبرى ، لم يعد يطيق رؤيته على هذه الحال . . أنه لا يؤمن بهذا العبث الذى يسميه أدبا وإنتاجا وقد أقبل على أن يحرق كافة المؤلفات التى يحتفظ بها الأستاذ سلامة فى المنزل، وهو مصمم على ضرورة اشتغاله بعمل نافع مجد يكسب منه قوته . كما أقسم على أن يتبرأ منه إذا رفض الوظيفة التى يعرضها عليه فى الشركة وهى وظيفة محصل . . وقد قال له شقيقه الأكبر فى معرض النقاش .

« يا ابنى يا حبيبى أنا كنت زيك باكتب وبألف روايات برضك لكن البلد دى مش بتاعت كتابة ولا أدب . . طب روح اسأل كده أى واحد من بتوع الأدب والمؤلفين المشهورين ، يقدر يعيش من الكتابة؟؟ ومع ذلك إيه المانع إنك تشتغل وتكسب وفى الوقت نفسه تألف روايات .

وكان الخواجه ينصت فى إصغاء وعناية فلم يكد الأستاذ يصمت قليلا حتى قال الخواجه . .

— يا سلام ! ! أخوك لازم عاقل قوى . . صحيح ! ! إيه المانع

تشتغل و تألف على كيفك يا أستاذ . . هو دا يمنع ! !

ونظر إليه الأستاذ فى استنكار .

« ما يمكنش اشتغل محصل وأقدر انتج حاجة لها قيمتها . . انت فاهم الأدب سلق بيض ! !

حتى الخواجه نفسه يقف فى الجانب الآخر مع أخيه ! !

وبعدين ! ! وبعدين يعنى ! .

أينزل بأمانيه البعيدة إلى هذا الدرك وهو الذى عاش يتعذب ويشق فى سبيل الخلق والانتاج؟ ؟ لقد فشل شقيقه فى أن يصبح مؤلف أديبا له انتاجه فحقد عليه وأراد له أن ينتهج مصيره . . وها هو الخواجه يحقد عليه بدوره لأنه فشل مثل أخيه واضطر الى فتح « قهوة » . . لكن فى هذا ما يشجعه على المثابرة، ويقوى من عزمه على السير فى طريق الغاية البعيدة التى رسمها لنفسه . . لن يتراجع عن موقفه مهما كانت الظروف ان شقيقه الأكبر أعطاه خمس جنيهات فى الصباح ليغريه بالخنوع . . ولكنه لن يخضع لمثل هذا الإذلال . . سيأتى الوقت الذى يستطيع أن يكسب فيه من انتاجه وأدبه .. فقط .. عليه أن يصبر ويثابر ولا يتراجع من منتصف الطريق .. وقام الأستاذ سلامة ينفخ فى ملال، وأعصابه على آخرها .. ودخل أقرب البارات ،وطلب بتورة روم على كينة ، وجلس يغرق أحزانه مع « بنت الحان » .

وانقضت ثلاثة أسابيع كاملة والأستاذ سلامة لا « يعتب » المقهى . وكان الخواجة ، كلما جاء الى البنك عصراً ، يفتش عن الأوراق والمجلات فى الدرج، فاذا وجدها أدرك أن الأستاذ لا يزال منقطعاً عن الحضور .. ولما طالت الغيبة فكر الخواجه بشرى أن الأستاذ ربما يكون قد انتحر .. غير أن

عاد فاستبعد الفكرة !! إلى أن جاءت السيرة ذات ليلة على لسان بعض الزبائن

وكانت المناسبة أن أحدهم دخل المقهى يحمل بعض الأوراق والمجلات ، واختار نفس المكان الذى تعود أن يجلس فيه الأستاذ سلامه ليكتب . وجلس صاحبنا يقرأ ويؤلف ويدنج مثلما كان يفعل الأستاذ فلما خرج، تذكر الكل ليالى الأستاذ .

قال أحمد عثمان لزكى افندى غبريال .

— أنت واخد بالك من الثانى الشبهه تمام!!

— لا ياشيخ حرام عليك . . فرق كبير . بالقليل فى جيبه منديل يمسح به العرق وشعره مساوى . .

وكان فى تعليق جبر خلفه ما أضحك الجميع إذا جاء يجرى موجها كلامه للخواجه ...

— ربنا بيحبك . راح واحد وجه الثانى ياخد مطرحه . . كلها يومين ويبتدى يقرى لك روايته . .

وهز الخواجه رأسه أسفا وتمتم فى صوت خافت ...

— قلة أدب . . قلة أدب بصحيح . .

وفى اليوم التالى فوجىء الجميع مع دخول الليل بدخول الأستاذ سلامة إلى المقهى، وفى يده حقيبة جلدية مليئة بالأوراق . وتقدم الأستاذ فحيا الجالسين ، وصافحهم فى حرارة وتواضع لايتفق بحال مع غروره المعهود . .

وبعد الشاى والسلامات والذى منه ، انفرد به الخواجة فى الركن « الثقافى » كما سماه أحمد عثمان الترزى . . وعرف الخواجه بشرى من الأستاذ سبب غيبته . .

أخيرا . . قبل الأستاذ سلامة أن يشتغل محصلا فى الشركة وأقسم أن ينأى

بنفسه عن عالم الأدب والانتاج الأدبى، بعد أن أهلك شبابه وأضاع زهرة عمره، فى أوهام وأحلام لاطائل من ورائها، فى بلد لايحترم الأدب والأدباء ولا يقدر جهادهم . ولما قام الخواجة ليحضر له مجلاته وبقية السيناريو دخل جبر خلف بحرى ووقف فى وسط القهوة ينادى . .

ـــ دياخواجة ياخواجة بشرى .. الحق . الثانى وصل . .

وهز الخواجه رأسه أسفا فى صوت خافت .

ـــ قلة أدب . . قلة أدب بصحيح . .

ورد الأستاذ سلامة وقد ظن أن الخواجه كان يعتذر وهو يعيد له المجلات والسيناريو .

ـــ مش بس قلة أدب ياخواجة .. دا مفيش أدب خالص فى البلد ..

وفهم الخواجه ما كان يقصده الأستاذ .. ولكن واحدا من الجالسين لم يفهم ، إلا أن الاستاذ سلامة كان لا يزال على طبعه . . . متأنزح . . . ومغرور . . .

فين الشغل



كان وسط الدار منخفضا عن سطح الأرض بحوالى ربع المتر، وقد وضع عند الباب، لوح من الخشب كالحاجز، بين أرض الحارة، ووسط الدار، وقلما كان يمر ليل إلا وارتطم أحدهم وهو خارج من البيت، بهذا الحاجز فأصاب ركبته. أما من دخل الدار بالليل أو دخلها بالنهار ولم يكن على علم بهذا الحاجز، فإن نصيبه الوقوع المحتم.

وقد مر على حكمت حين من الدهر، حتى تعودت أن تدخل إلى الدار وتخرج منها، فى أحرج الساعات وأحلكها، بدون أن تصدم أو تقع، وإنما تدخل وتخرج، كما يدخل الناس ويخرجون، فى بقية البيوت التى خلقها لهم الله وأسكنهم فيها. ولم يكن من عادة حكمت أن تخرج أو تدخل كثيراً مع ذلك. بل كان يلذ لها الجلوس كلما جاء العصر، وكثيرا ما كان يجىء العصر، والحارة صامتة صمت القبور، وزوجها خارج الدار وليس من أحد يؤنس وحشتها. حينذاك تتحرك حكمت، وتترك غرفتها لتجلس على الباب مستندة بذراعها على الحاجز الخشبى بينما ذراعها الآخر، يروح ويجىء إلى فمها بحبات «اللب الأسمر» من أطراف أصابعها الرفيعة الطويلة المخضبة بالحناء..

وتختفى الشمس تماما من على الجدران، ويعود الناس أدراجهم إلى البيوت. وتدب الحياة فى الحارة من جديد.. فى الصباح كان الأسطى عبد العال «المنجد» الذى يسكن أمامهم، قد خرج غاضبا من زوجته وأقسم أن لا يعود إلى المنزل، والآن وقد دخل الليل عاد الأسطى

عبد العال ، يحمل تحت ذراعه « كيس القماش» ومن ورائه ابنه دسوق يجرجر بقية العدة على الأرض .. وقامت الست حكمت من جانب الحاجز لتفسح له الطريق .

ـــ مساء الخير يا ستى حكمت .

ـــ خير والسعادة يا عم عبد العال .

واتجه عم عبدالعال ليفتح باب حجرته المواجهةللغرفة التى تسكن فيها الست حكمت مع زوجها . ولكنه تذكر فجأة كيف لم يتنبه فى الصباح « والخناقة » على أشدها بينه وبين زوجته أم سنيه، فنسى المفتاح معها . .

ـــ هما الجماعة خرجوا يا ستى حكمت ؟ !

ـــ من الصبح يا عم عبد العال . . ما رجعوش لدلوقت

واستدار عم عبدالعال فأخذ بقيةالعدة من يد دسوق الصغير، وأخرج من جيبه قرشا صاغا وناوله لدسوق . .

ـــ خد يا ابنى . . أمرنا لله . .

ونظر إلى الست حكمت ففهمت أنه يريد ترك دسوق معها إلى أن تعود أمه .

وأنه سيأخذ « العدة » ولن يعود قبل مرور أيام . .

ـــ وصيتك دسوق .. النبى وصى على سابع جار ياستى حكمت .. الواد طيب ومش وش شقا .. خليتكوا بعافية .

ولكن عبد العال لم يكد يخرج[من الباب] ويتخطى حاجز الخشب حتى عادأدراجه وكأنه نسى شيئاً هاما ..

ـــ واد يادسوق .. هات بالصاغ عيش وطعمية، واتمشى لحسن أمك تتأخر عند أمها، وإذا أنا ما ارجعتش ابقى فوت على فرج الفروجى .. وهو حيديلك المصروف .

وأقبل الليل متثاقلا كئيبا. وأضيء الفانوس الذى يقع خارج نافذة غرفة حكمت ويضيئها بنوره الباهت .. وكان دسو قد خرج ليأ كل ... جلست حكمت على الأريكة فى داخل الغرفة تنصت إلى ما يدور فى الحارة عاده قبل كل عشاء..

جاءت الساعة التى يجلس فيها عبد الرحمن أفندى فى البلكونة « مع زوجته ليحكى لها عن عمله فى المصلحة وموقف الرؤساء منه. وبدأت زوجة « السنى » فى إعداد الطعام الذى سيأ كله زوجها مع أصحابه بعد عقد حفلة الذكر عقب عودتهم من صلاة « التراويح » .. وها هو « سيد حلاطة » يعود بعربة « الكشرى » وقد خرجت إليه زوجته لإفراغ ما بقى فيها ، وتغطيتها وربطها بحديد النافذة فى الغرفة المواجهة لغرفة أم « سنية » من البيت المقابل .

وتثاءبت حكمت فى ملال ثم نامت على الأريكة هامده . لقد قضت النهار الطويل وحدها فى الغرفة ترتق بعض الملابس .. وأكلت وشربت ونامت وتمددت وجلست على الباب فى العصر مستندة إلى حاجز الخشب وجاء المساء وكثيرا ما كان تجىء المساء، وجسمها جامد لا تطيق له حراكا وحين عاد دسوقى وفتح باب الغرفة عليها، كانت قد غفت إغفاءة قصيرة فتدلى ذراعها إلى أسفل، وكادت أصابعها الحمراء تلامس الأرض، وانفرجت سيقانها الطويلة عن أفخاذها .. وجاء دسوقى يهزها ..

— « خالتى حكمت .. خالة .. أتى نمتى »

— وتنبهت حكمت ولكنها لم تفزع بل أنزلت سيقانها وأسرعت إلى أطرافها ثوبها لتغطيها .

— أنا جبت طعمية وعيش .. أمى ماجتش .. أروح لها عند ستى ..

ــ « لأ يا أبني لحسن تتوه لوحدك .. حالا ترجع » ..

وجلس دسوقي على الأريكة، وقامت حكمت إلى الدولاب فأحضرت قطعة من الجبن « وخيارتين مخللتين » وضعتها أمامه مع « العيش والطعمية » فوق المائدة الصاج . وراح دسوق يأكل في صمت . ورفعت حكمت اللمبة لتشعلها فشعرت بأنها خفيفه لم يكن بها الاقطارات قليلة من « الجاز »

ــ « دسوقي .. يا ابني ، . تعرف تشترى جاز .. »

وقام دسوقي وفي فمه « نصف خياره مخلله » ليأخذ منها الزجاجة الفارغة ولكنها أجلسته . كان لابد أن يأكل أولا .. ثم أن فانوس الشارع يضيء الغرفة ضوءاً كافيا .. لم تكن حكمت قد استعملت « لمبة الجاز » منذ ثلاثة أيام، ولهذا فإنها لم تكن تعلم أن « اللمبة » كانت فارغة . وكان من عادتها أن لا تضيء الغرفة إلا إذا كان معها زوجها .. وقدمرت « ليلتين » وزوجها خارج الدار . . كان يشتغل فراشا في أحد اللوكاندات ويبيت في اللوكاندة أكثر ليالي الأسبوع .

ــ « كل يادسوقي .. كل يا أبني »

ولكن دسوقي كان قد شبع وقام ليملأ الزجاجة « بالجاز » .

ولم يكن في نية حكمت أن تستعمل « اللمبة » هذه الليلة أيضا . ومع ذلك، أعطت دسوقي الزجاجة . وخرج الصبي يجرى، وسمعته حكمت في الخارج وهو يعاكس « السيد حلاطه » بائع « الكشرى » . وقامت حكمت إلى الدولاب ووجدت نفسها تخلع الثوب الذى ترتديه وتلبس قميص النوم.. كان الجو حار ولكنها لم تكن تحس حرارة الجو في هذه الغرفة الرطبة . لماذا خلعت ثوبها ولبست قميص النوم ! ! انها لا تفعل ذلك إلا إذا كان زوجها موجودا . وزوجها هذه الليلة بايت في اللوكاندة

كالليلة السابقة وكالليلة التى قبلها . وجلست حكمت على السرير بقميص النوم ، تنظر إلى صدرها الواسع ونهودها المكوره . وراحت تفكر فى نفسها . إنها تزوجت منذ خمس سنوات . وهو رجل بمعنى الكلمة . ومع ذلك فإنها لم تنجب منه أولاد . كانت تود لو أنها رزقت منه بطفل صغير . زى دسوقى ابن أم سنية . واحست حكمت بالدموع تشكوم فى مآقيها .

كانت الحارة تعلم أن زوجها ينام أغلب لياليه فى اللوكاندة . وقد أرجع أهل الحارة عدم خلفتها لهذا السبب . بينما الحقيقه أن حكمت على ما تعتقـــد كانت تتوهم أنها عاقر . . . وأفاقت من أحزانها على صوت أم سنية . .

— حاسبى يا بت ياسنية . . أوعى تقعى زى عواديك .

ذلك انها دائما ما كانت ترتطم بحاجز الخشب ، وتسقط ما فى يدها من حاجياتهم . . . . وإذن فقدعادت أم سنية ومعها ابنتها وكانت سنية تحمل فوق رأسها « قفه » . . وأسرعت حكمت إلى الباب تستقبلهما .

— عواف يا حكومة . . ازيك يا أختى . . وحشتينا يا حبيبتى . . والنبى تنزلى القفة مع سنية على ما أفتح الاوضة .

وكان هذا هو دأب أم سنية كلما خاطبت حكمت . كانت تدللها وكأنها طفلة . . ولم تجد اليق من أن تلقبها حكومة . لانها كانت تود أن تنجب بنتا ثانية تسميها حكمت وتدللها بالحكومة . . ودخلت أم سنية حجرتها ومن ورائها حكمت وسنية يحملان القفة واسرعت أم سنية تفتح الشباك ثم راحت تبحث عن علبة الكبريت لتضىء الغرفة . .

ـــ « إيه أخبارك ياحكومه ... المنيل على عينه رجع ؟ ! »

وأخبرتها حكمت بكل شيء، بينما كانت أم سنية تضيء «اللمبة» وسنية تنظف ماعلق بشعرها من « الدقيق » المتراكم على قاع « القفه » ..

ـــ ما قالش حيغيب كام يوم ؟ ! ماعدا ياأختي ساب الدسوقي المره دي ! ؟ !

ولم تجبها حكمت بأكثر مما حدث كما كانت تود، حتى إذا عاد الدسوقي أخذت منه حكمت الزجاجة، ورجعت إلى غرفتها .. وراحت تملأ « اللمبة » بالغاز

وبعد أن أخفت أم سنية «القفة» تحت السرير وداخلها الدقيق جلست تستفسر الدسوقي عن والده نقطة فنقطة متى حضر ؟ وماذا قال؟! وكيف قضى يومه الطويل !! ولكنها لم تخرج منه كما لم تخرج من حكمت بشيء، يمكن أن يبعث إلى نفسها الإطمئنان إذا كان عبد العال زوجها يتغيب كثيراً .. « ساعات بالشهر وحياتك» ولكنه كان يتغيب جريا وراء القوت لأنه كنجد « وأسطى صنايعي على باب الكريم » لم يمكن ليحصل على الشغل » إلا في فترات متقطعة ، فإذا لم يكن هناك « شغل » أو عاد عبد العال إلى المنزل في آخر النهار كما عاد لها بالأمس وليس في جيبه مصروف نامت أم سنية ليلتها في أحضان سنية، حتى إذا أصبح الصباح أخرجته « بخناقه » وخرجت مع ابنتها غاضبة عند أمها . فإذا انقضى النهار، ولم يعثر عبدالعال على « الشغل » ثم عاد إلى المنزل فلم يجدها تحتم عليه أن لا « يعتب » الحجرة من غير مصروف البيت ؟ وتكون النتيجة أن عبد العال لا يعود، قبل أن يحصل على « الشغل » أحيانا بعد أسبوع .. وأحيانا بعد يومين .. « على حسب التساهيل »

وجلست أم سنية تأكل مع ابنتها « عسل بطحينة وفطير » كانت قد أحضرته من عند أمها . وجلس معهم دسوقى واسكنه لم يأكل إلا لقمة واحدة . وعرفت الأم وابنتها أنه تعشى عند حكمت قبل حضورها وأنه اشترى لها « الجاز » الذى أخذته فى الزجاجة معها . وفى الحال تصورت أم سنية ان زوج حكمت قد عاد ..

— « دا لازم جوزها رجع ! ! مادام ناوية تقيد الاوضة » !

— « لأ يا أمه.. وكانت كان لابسة قميص النوم »

— « أسكتى انتى يامسخوطة .. إيه عرفك فى الكلام ده » . .

أكيد لابد أن يكون زوجها قد عاد . ولكن أم سنية لم تلحظ أن حكمت كانت ترتدى « قميص النوم » . وراحت أم سنية وهى تقضم الفطير ، تتخيل حكمت بعد أن أشعلت «لمبتها » واقفة أمام المرآة بقميص نومها ، تضع على وجهها ما تضع من مساحيق . « إشى أحمر وإشى أبيض » وشعرت أم سنية بشىء من الغيرة ، وأحست بشىء من الندم . لأنها أغضبت عبد العال فى الصباح .. ولكنها سرعان ما طرحت هذه الخواطر جانبا « هو دا وقته » كان لابد أن تغضب وكان لابد أن يتغيب زوجها ليعثر على « الشغل » وإلا فمن أين لهم أن يأكلوا ! ! !

ولما نام دسوقى ونامت سنية قامت إلى غرفة حكمت ..

— « حكومة .. أنتى قاعدة لوحدك ياحبيبتى ؟ »

— « أتفضلى ياستى أم سنية .. اتفضلى »

وجلست أم سنية أمام حكمت على الأريكة تحت الشباك .. وراحت كل منهما « تفش غمها وهمها » كانت أم سنية تفضل لو أن زوجها « فتح دكان وقعد فيه » ولكن عبد العال لم يكن يملك المال الذى يكفى لفتح

دكان .. وكانت تود لو أنه أشتغل فى أى محل من محلات الموبيليا الكبيرة زى زمان ، ليحصل على أجر منتظم ثابت وشغل دائم مضمون ولكن ما باليد حيـــلة .. « القسمة والنصيب ياحكومة . حنعمل إيه يابنتى .. »

أما حكمت فإنها كانت تفضل لو أن زوجها هو الآخر قد استمر فى فى عمله جرسونا فى قهوة — ولكن إبراهيم على ما يقول دءاما .. « مش وش بهدله ما أقدرش اشتغل خدام عمومى » .. غير أن هناك كثيرين يشتغلون « جرسونات فى القهاوى » ويكسبون ويعيشون فى هدوء وراحة . لماذا لا يكون إبراهيم مثلهم !! « ليه ياستى أم سنية !؟ ليه ! هوه أحسن منهم فى إيه ؟ ! وهى القهوة مش زى اللوكاندة ! ؟ وتضرب أم سنية كفا على كف ولا تجد ما تقول .. « القسمة والنصيب ياحكومة حنعمل إيه يابتى ! !

ولما عادت أم سنية إلى غرفتها ، راحت تقضم شفتيها بأسنانها .. لقد ذهبت إلى حكمت لتعرف إذا كان زوجها قد عاد أو سيعود فى هذه الليلة . ولكنها لم تسألها . بل إنها نسيت أن تنظر إلى ثوبها .. هل كانت حكمت حقا ترتدى قميص النوم ؟ ! وجلست أم سنية تستعيد فى خيالها صور حكمت كما رأتها أخيرا . أن صدرها الواسع ونهودها الكبيرة كانت ظاهرة . لابد أنها كانت ترتدى قميص النوم ! ..

وكانت أم سنية تشعر بالنعاس يغالب أجفانها ، إلا أنها ظلت تقاوم النوم ، بل لقد جلست أمام النافذة فى مواجهة الهواء حتى لا تنام . وتطلعت أم سنية إلى السماء ، فتذكرت درية زوجة عبد الرحمن أفندى .. ولكنها لم تجدها فى البلكونة ، إذ أن بابها الزجاجى كان مغلقا لا يظهر من ورائه

إلا بصيص خافت من «اللبة السهارى» . . وراح خيال أم سنية يصور لها مناجاة عبد الرحمن أفندى لزوجته، فظلت تراقب طويلا ارتعاش ضوء اللبة الضئيل على سقف الغرفة المعتم . ثم انتقلت بناظريها إلى النافذة المقابلة ، فصدمت عيونها عربة «الكشرى» وكانت تحجب نافذة الغرفة التى ينام فيها «السيد حلاطه» وزوجته .. وراحت تنصت إلى أضعف صوت.. وهنا فقط خرقت أذنيها تراتيل « السنى والجماعة الدراويش بتوع كل ليلة» . .

كانت حلقة الذكر على أشدها طول الوقت ومع ذلك فإن آذان أم سنية كانت مثل بقية حواسها . تسبح فى ملكوت بعيد . . وأحست أم سنية أنها فى حاجة إلى أن تتكلم مع أحد، فأغلقت النافذة وقامت متجهة نحو حكمت التى لا بد أن تكون مستيقظة تنتظر زوجها .

وأخذت أم سنية اللبة معها إلى «وسط الدار» وأغلقت باب غرفتها واستدارت لتتجه نحو غرفة حكمت . . وكادت أم سنية تصرخ إذ رأت أمامها رجلا يقف على الباب . .

— « يا ساتر . . يا ساتر » .

وتنحنح الرجل وأراد أن يتراجع . . وعرفت أم سنية من صوته أنه ابراهيم . .

— « سى ابراهيم . . مساء الخير . . » .

وبادلها سى ابراهيم التحية فى خجل، ثم تراجع ليخرج، فاصطدمت ركبته بالحاجز الخشبى، حتى كاد ينكفىء على وجهه أمام الباب ، كان يظنها قد قامت لقضاء حاجة، فخجل أن يدخل، واستغربت أم سنية لعودته !!

— « اتفضل ياسى ابراهيم . . اتفضل دا بيتك » .

ولكنه أبى أن يعود فلم يكن أمام أم سنية بد ، من أن تتقدم نحو غرفة حكمت .. وكانت حكمت تصارع النوم حالمة وقد رأت فيما يرى النائم وهى تتقلب فى السرير ، أن زوجها ابراهيم قد عاد ، وأنه على وشك أن يدخل الحجرة . . ولكنها بوغتت بأم سنية وهى تفتح بابها

— « ست أم سنية ! » .

— « أيوه يا حكومة سى ابراهيم رجع يا حكومة . . والنبي أنا كنت قلقانة عليه » .

وخرجت أم سنية تستدعى سى ابراهيم ، بينما جلست حكمت على طرف السرير تعجب أن يحضر زوجها ويتحقق حلمها بهذه السرعة .. ونادى ابراهيم على الست أم سنية وهى تنصرف إلى غرفتها .

— « ست أم سنية . . هو المعلم عبد العال رجع »

— « رجع منين يا أخويا . . هو لحق يمشى » .

— « إيه !! خرج ولا ايه ؟ ! » .

— « دى عوايده . . خرج طفشان يا سى ابراهيم » .

— « معلش . وحياتك لما يرجع قولى له إن الشغلة اللى كلمته عليها حا تبتدى من بكره ، عندنا فى اللوكاندة عاوزين يتجددوا الفرش بتاع الأوض كلها . وأنا كنت اتفقت معاه ، علشان يجيب شوية صنيعية ويجى ياخد المقاولة .. بس على شرط بكره الصبح قبل ما الخواجه يشوف حد غيره ..

— « بكره بكره يا سى ابراهيم !! »

— « لو أنا أخر عن بكره ما فيش فايدة »

— « والنبي كتر خيرك يا سي ابراهيم .. إلهي ما يحرمناش منك . عقبال عوض بجيلك وتفرح بإذن الله إن شاالله عن قريب يا رب » ..

واجتازت أم سنية وسط الدار وفي يدها اللبة. وهي في طريقها إلى غرفتها تسب زوجها، وتلعن بخته الأسود اللي زي الهباب « ما لوش في الطيب نصيب » .

ودخلت الغرفة، فوقع بصرها على سنية وهي نائمة وقد انحسر ثوبها عن معظم جسدها فبدى نصفها الأسفل عاريا ..

— « بت يا مكلوبة .. مش تغطي نفسك يا بت » .

ولكن سنية كانت نائمة لا تسمع . فوضعت ام سنية « اللبة » وأسدلت الثوب على أفخاذ ابنتها . « يا أخويا البنت كخت »

كانت الغرفة صغيرة، وكانت أم سنية قد أغلقت النافذة وسرعان ما شعرت بضيق في انفاسها .. واختلطت رائحة الدقيق برائحة البصل برائحة الخلل بأنفاس دسوقي وأخته . . وأنتج هذا كله مزيجا عجيباً خانقاً . وأحست أم سنية أنها في حاجة إلى التنفس . . في حاجة إلى الهواء . . وفتحت النافذة فاذا بها تفاجأ بحلقة الذكر قائمة على قدم وساق . فراحت تلعن السني في صوت مسموع . « انلهي على دقنك انت والمجاذيب بتوعك . . حتعيش طول عمرك في الذكر . » ذلك أن أم سنية كانت تكره السني « لله في لله » وخاصة بعد أن منع زوجته من زيارتها دون بقية نساء الحارة، بزعم أنه لمح زوجها عبدالعال « داخل الحارة » واستكملت أم سنيه تحادث نفسها . .

— « ياترى أنت فين دلوقت ياعبد العال . . ياترى يبقى فين »

ماذا لو أخطأ عبد العال هذه المرة وعاد دون محاولة الاغتراب للبحث عن « شغل ».

— « ياريتني ياأختي مازعلته الصبح »

وظلت أم سنية جالسة تفكر في صوت مسموع : . إن الذنب ذنبها فلو لم تغضبه ولو لم تذهب إلى أمها . . ولكنها ذهبت إلى أمها لتحضر الدقيق . . « وهو افتكرني غضبانة زي كل مرة » . . غير أنها في الحقيقة كانت غاضبة ، وكانت تستطيع أن لاتخرج ، وأن ترسل سنية لإحضار الدقيق . . . إنها هي السبب وهي التي ستضيع على زوجها فرصة كبيرة . « قرش لو كانت قد بحاله . . . » . . . من يدري . . ليس من المحتمل أن يتمكن عبد العال بعد هذه المقاولة من الحصول على مبلغ كبير ؟ ! « يفتح به دكان ويخلص ؟ ! » .

ولم تشعر أم سنية بنفسها إلا وهي على باب الحارة ، وأسدلت أطراف « الطرحة » السوداء على أسفل وجهها لتغطي فمها وأسرعت تبحث عن زوجها عبد العال . . ولكنها لم تجده في القهوة . . فاتجهت نحو صندوق الكازوزه « حيث تعود أن يجلس مع أصحابه « الصعايدة » وعرفت أن زوجها قد انقطع عن الجلوس معهم . .

وطفقت أم سنية تبحث في كل مكان ولكن دون جدوى . . . لم تجد عبد العال ولم تصادف واحدا يعرف مكانه . . . « غطس في بير ياناس . . مافيش فايدة . . قسمته ونصيبه » . ورجعت أم سنية مطرقة الرأس حزينة . . وفيما هي « تدخل الحارة إذ قابلها مرزوق « الخضري »

— « مساء الخير ياست أم سنية . . إيه كفى الله الشر . . خارجه وخرى ليه » .

— « مشفتش عبد العال ياعم مرزوق ؟ !

— « شفته ياست »

— « والنبي فين يا أخويه ؟ »

— « كان معايا من ساعة واحدة بس » . .

— « وراح فين ؟ !

— « راح الحسينية يبيت عند جماعة قرايبه . . دا حتى طلب منى خمسين قرش ما كانش معايا . . القصد إديته عشرة صاغ . . وحيفوت الصبح ياخد الباق »

— « صحيح ياعم مرزوق !! .

— « بأقول لك إديته عشرة صاغ . . بإيدى دى » . .

— « والنبي ياعم مرزوق لو جالك الصبح تقول له يرجع البيت . أصل جاله « شغل » مقاولة كبيرة فى لوكاندة . حينجد القرش للسواح . .

— « ماهو أنتى ياست سنية اللى بتطفشيه » . .

— « ماعنتش ياخويه آزعله . . والنبي وحياة عيالك ماتنساش ياعم مرزوق » . .

— « هوه فين الشغل !! بس يجى الشغل !!!

وترك الرجل وهو يهز رأسه غير مصدق . .

وأحست أم سنية وهى تسير فى الحارة براحة وهدوء . . وكانت تبتسم وأمامها صورة عبدالعال وهو يصرخ فى وجهها كالعادة . . « هوه فين الشغل . . قوليلى بس . . فين الشغل ! ؟ »

وخيل إليها أنها لم تكن تسير على الأرض . .

كانت وكأنها تطير فى الهواء

(تمت بحمد الله)

الفهرس

نقــدم لك :

نعمان عاشور



• من مواليد ميت غمر - الدقهلية
• درس الأدب الانجليزى فى كلية الآداب وتخرج فيها عام ١٩٤٢
• من أنصار الفن للحياة وهو أخلص أتباع المدرسة الواقعية .
• أديب ناقد - له دراساته وبحوثه فى الأدب المصرى الحديث
• اشترك فى تحرير أغلب المجلات التى صــدرت فى مصر فى السنوات العشر الماضية .
• ينشر قصصه فى كثير من المجلات والصحف . وقد عرف بالقدرة على رسم وتحليل الشخصية الشعبية المصرية
• وهو إذاعى من أبرز وأنجح الاذاعيين وتتميز كتاباته للاذاعة بجدية الموضوع وعمق الثقافة .
• يؤلف للمسرح وله مسرحية أخيرة هى كوميديا « المغناطيس »

الثمن ١٠ ص

